المركز القومى للترجمة

بوليڤار

تأليف : خوسيه إنريكى رودو

ترجمة : محمود على مكى

المشروع القومى للترجمة

1124

هذا الكتاب هو إحدى الدراسات التاريخية التى خطها قلم خوسيه إنريكى رودو، ويعتبر من أجمل صفحات إنتاجه وأروعها. وكان رودو قد نشر هذه الدراسة للمرة الأولى سنة ١٩٠٤م، ثم أعاد نشرها مع مجموعة أخرى من الدراسات جعل عنوانها " شرفة بروسبيرو"، وهو كتاب طبع أكثر من مرة، وإحدى طبعاته هى التى ظهرت فى مدريد (إسبانيا) سنة ١٩١٥م.

تصميم الغلاف: عبد العزيز السماحى

بوليڤـــار

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١١٢٤
- بوليڤار
- خوسيه إنريكى رودو
- محمود على مكى
- الطبعة الأولى ١٩٧٢
- ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

Simón Bolívar

por :.José Enrique Rodó

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .
شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة .

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة

بوليڤار

تـأليـف : خوسيه إنريكى رودو
ترجمة : محمود على مكى

٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

رودو ، خوسيه إنريكى

بوليڤار / تأليف : خوسيه إنريكى رودو ؛ ترجمة : محمود على مكى -

القاهرة : ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧

١٢٨ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم (المشروع القومى للترجمة ، العدد ١١٢٤)

١ - بوليڤار ، سيمون ١٧٨٣ - ١٨٣٠

٢ - السياسيون الأمريكيون .

(أ) مكى ، محمود على (مترجم) .

(ب) العنوان ٩٢٣,٣٨٧

(ج) السلسلة .

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٨٥٠٧

الترقيم الدولى I.S.BN. 977 - 437 - 294 - 8

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز القومى للترجمة .

بولیفار

فهـــرس

الموضوع	صفحة
تقـــديم	٥
المقدمة · خوسيه انريكي رودو	١٣
بوليفـــار	٢٣
سيمون بوليفار في سطور	٣٧
حواش	١١٧

خوسيه إنريكي رودو

١٨٧١ - ١٩١٧

مقدمة

ولد خوسيه انريكى رودو (José Enrique Rodó) فى مونتفيديو فى ١٥ من يولية ١٨٧١ . وكان أبوه تاجرا غنيا متيسر الحال ، وان لم تمنعه تجاراته وأعماله من الاهتمام بالثقافة والفكر . فقد كانت مكتبته الكبيرة المتنوعة من أول ما اثار فى نفس ابنه الطفل حب الاستطلاع وشجعه على القراءة والاقبال على الاطلاع .

وتعلم رودو القراءة والكتابة وهو فى الرابعة من عمره ، وزوده أبوه منذ صباه المبكر بمدرسين خاصين غرسوا فى نفسه الغضة حب الاطلاع. وفى سنة ١٨٨٢ التحق رودو بمعهد خاص كان التعليم فيه مدنيا خالصا على عكس الكثير من المعاهد التى كان يلتحق بها الأطفال فى مثل سنه والتى كان التعليم فيها خاضعا لاشراف السلطات الكنسية ، وكان لهذه أثرها فى تحرر رودو فى تفكيره وتوسيع أفقه منذ هذه الفترة المبكرة من حياته وقد بدا اهتمام رودو بالأدب وتطلعه الى مهنة العلم منذ أيام دراسته فى هذا المعهد ، اذ أصدر فيه مع زميل له مجلة صغيرة كان يحررها بنفسه .

وفى سنة ١٨٨٥ توفى والده ، وكان لذلك الحدث أثر كبير فى حياته ، اذ أن الحياة السهلة المتيسرة التى كان يحياها فى بيت والده قد أصابها موت رب الأسرة بما أحالها الى شظف وفقر . حتى أن رودو اضطر الى أن يعمل بيده حتى يقيم أود نفسه وأسرته ، على انه استمر فى دراسته وان بدا ميله الى الدراسات الأدبية وانصرافه عما كان مقررا عليه من دراسة العلوم . وهذا هو ما جعله يقطع دراسته قبل أن يتمها .

وفى ســـنة ١٨٩٥ يبدأ ظهـور رودو فى ميـدان الحيـاة الأدبيـة بأورجواى اذ يقرر بالاشتراك مع بعض زملائه الشباب اصدار صحيفة ادبية يطلقون عليها اسم « المجلة الوطنيـة للأدب والعلوم الاجتماعية » ويصدر العدد الأول من هذه الصحيفة فى ٥ من مارس من السنة المذكورة. وسرعان ما ارتفع نجمه وذاع صيته فى اورجواى وفى البـلاد المجـاورة الناطقة بالاسبانية بفضل المقالات الأدبية والنقدية التى كان يكتبهـا فى هذه المجلة . ولكن عديدا من الصعوبات والمشكلات أدت الى ايقاف نشر المجلة بعد نحو سنتين من صدورها ، فى نوفمبر سنة ١٨٩٧ . ومع ذلك فقد كسب رودو من عمله فى تلك المجلة خلال حياتها القصيرة بروز اسمه وذيوع صيته باعتباره من أكبر النقاد الأدبيين الشباب . ويتصل رودو بعد ذلك بالشاعر الأمريكى العظيم « روبن داريو » زعيم الحركة الأدبية المعروفة باسم « الاتجاه الحديث » فى الآداب الاسبانية . وينضم رودو الى هذه الحركة الأدبيـة الجـديدة ، بل انه سرعان ما يصبح من أبرز اعلامها .

وفى هذه الأثناء كانت البلاد تجتاز مرحلة من الصراع السـياسى العنيف بين الأحزاب ، واشترك رودو فى النشـاط السياسى ، ولكنـه لم يوجه اهتمامه الى المعارك الحزبية ، بل بدأ فى تفكيره السياسى هادئا غيورا على مصلحة بلاده حريصا على اقرار الحرية والعدالة فيها .

ويصدر فى هذه الفترة اهم كتبه واعظمها وهو كتـاب « اريـل Ariel » سنة ١٩٠٠ ، وهو مجموعة من المقالات الفلسفية التى عالج فيها كثيرا من موضوعات الساعة الفكرية ولا سيما ازمة الفكر الانســانى بين الثقافة والديمقراطية . وقد ضمن هـذا الكتاب لرودو مكانة عالية بين حال الفكر فى امريكا اللاتينية كلها ، بل ان اسمه تجـاوز حدود قارته الى اوربا وغيرها من الأوساط المثقفة فى العالم كله .

وقد ادى نجاح الحزب الذى كان رودو يكتب فى صحافته ـ وان لم يكن هو نفسه من جنود ذلك الحزب او ممن يضعون أقلامهم فى خدمة

الحزبية السياسية ـ الى أن يعهد اليه بوظيفة ادارية لم يستمر فى مباشرتها زمنا طويلا ، اذ عين فى ٩ من مايو سنة ١٨٩٨ استاذا مساعدا للأدب فى جامعة مونتفيديو . واذا كان اسم الكرسى الذى شغله رودو من الناحية الرسمية هو « تاريخ الأدب » فان ما كان يدرسه رودو لطلبته كان أقرب الى دراسة الفلسفة الجمالية وتحليل القيم الأدبية منه الى التاريخ الأدبى .

ظل رودو فى منصبه الجامعى ثلاث سنوات ، حتى سنة ١٩٠١ ، وفى هذه السنة تعود السياسة لاغرائه فى خوض ميدانها من جديد ، اذ يقرر عدد من قادة « الحزب الأحمر » من الشباب أن يؤلفوا جمعية تعيد الشباب الى أوصال هذا الحزب بعد أن مزقته زعاماته القديمة ، وتتألف هذه الجمعية باسم « نادى الحرية » وينتخب رودو نائب رئيسها . ولكن النزاع يدب فى هذا النادى نفسه ، ويرى رودو نفسه مضطرا الى الانصراف عن هذه التجربة السياسية ، وان كان أهم ما تضمنته بالنسبة لتراثه الفكرى هى انها أتاحت له فرصة الاتصال بالجماهير والخطابة فيها . وقد ذاع اسم رودو بعد ذلك باعتباره من أعظم الخطباء والمحاضرين الذين اخرجتهم قارة أمريكا اللاتينية فى تاريخها الحديث .

ولم يعن اعتزال رودو لنادى الحرية الذى كان من مؤسسيه الانصراف عن الحياة السياسية أو الشئون العامة فى بلاده . ففى سنة ١٩٠٢ رشح نفسه فى الانتخابات ، وفاز بمقعد فى البرلمان نائبا عن مونتفيديو . وظل فى هذا المنصب ثلاث سنوات (حتى ١٩٠٥) مباشرا نشاطا كبيرا فى خدمة البلاد وقضاياها الثقافية والفكرية والتعليمية . ولكن الجو السياسى فى البلاد كان مقبضا تنفر منه نفس كل وطنى مؤمن غيور على مصالح بلده مثل رودو ، فان الخلافات الحزبية ظلت تتفاقم حتى انتهت الى انفجار الحرب الأهلية فى سنة ١٩٠٤ . ويصور رودو هذا الجو القاتم الحزين بقوله فى احدى رسائله :

« اما لدينا هنـــا فالحال لم تتغير عما كانت عليه : حرب وشقاء ، متزعمون ومتعصبون ، انهار من الدماء وبراكين من الأحقاد ، فى كل هذا حياة متدفقة نابضة بالنشاط ، أما فيما عداه فليس هنـــاك الا المـــوت والصمت »

ويقول فى رســـالة أخرى وجهها الى الفيلســـوف الأسبانى الكبير ميجيل دى أونامونو :

«ليس هناك شىء يبث السرور فيما يمكن ان احدثك به عن بلادى. الحرب الأهلية عندنا ليست شيئا جديدا، وانما هى شىء يبدو انه تأصل فى شعوبنا حتى انه أصبح بمثابة « تسلية » أو « رياضة » قومية . واذا كانت هذه الحروب الأهلية شيئا مخجلا محزنا لا يكاد المرء يجد لها مبررا الا حماقة من يظنون انفســـهم زعماء وقادة ، فاننى لا أشـــاطر الكثيرين تشاؤمهم فى نظرتهم الى مصير بلادنا . فانا واثق من ان كل هذا شر لابد ان ينتهى ، ريعقبه نظام جديد للحياة سوف يستفيد من تجارب الماضى وويلاته . على ان المؤلم هنا هو أن مثل هذا الجو الخانق الذى نعيش فيه لا يسمح لحياة الفكر بأن تعمل شيئا له قيمته . وأنا رجـــل اديب اهوى الفكر والدراســـة ولـــكنى لست ممن يعتزلون حياة أوطانهم أو يعتكفون فى أبراج عاجية بعيدا عما تضطرب به نفوس المخلصين من أبناء أممهم من آلام وآمال » .

ولكن اشمئزاز رودو من الجـــو الســـياسى الموبوء فى بلاده ظل فى تزايد مستمر . ففى سنة ١٩٠٥ اجريت انتخابات جديدة واعيد انتخابه ولكنه اعلن استقالته من المجلس النيابى طوعا وبمحض ارادته فى ٨ من فبراير سنة ١٩٠٥ ووصف هو نفسه هذه الاستقالة بقوله : « هنا انتهى الخروج الأول لدون كيخوتى» ، وهو يعنى بذلك يأسه من اصلاح أحوال السياسة فى بلاده واقتناعه بأن جهوده التى بذلها خلال السنوات الثلاث الماضية انما كانت أشبه بجهود ذلك الفارس الجوال دون كيخوتى بطل

رواية سيرفانتيس الخالدة الذى أراد أن يملأ الأرض عدلا ، وأن يحمى الضعفاء والعاجزين ، ولكنه لم يكن يقـابل من النـاس الا بالســخرية والاســتهتار . ويبدو أنه منـذ تلك الفترة عزم على مغادرة اورجواى والبحث فى أوربا عن جو أصفى للتفكير ومتعة الروح من جو بلاده الذى كان مشحونا بالتنازع والتناحر السياسى والمذهبى العنيف .

وكانت كتب رودو ومقالاته قد جعلت منه واحدا من أبرز المفكرين والكتاب فى العالم الأمريكى الناطق بالاسبانية ، فقدمت اليه عروض كثيرة من جانب كثير من كبريات الصحف الأمريكية لكى يكون من كتابهـا أو مراسليها . وعلى الرغم من ذلك فالأخبار التى نعرفها عنه خلال السنوات التى وافقت أوج شهرته الأدبية تدل على أنه كان دائما فى ضائقة مالية شديدة ، فقد كان لانصرافه الى حياة الفكر أبعد ما يكون عن التـدبير السليم لدخله . وكان كريما طيبا فى معاملاته . وقد أدى هـذا الى أن يعمل على استغلاله بعض من يتظاهرون بصداقته .

وفى سنة ١٩٠٧ انتهى رودو الى قبول عرض قدمته اليه صحيفة « لاناثيون » (الأمة) الأرجنتينية الصادرة فى بوينوس ايرس ، لكى يكون من محرريها الأدبيين ، وكانت هذه الجريدة ــ ولاتزال ــ من أعظم صحف القارة الأمريكية وأكثرها قراء .

وفى نفس السنة تعرض عليه ادارة جامعة مونتفيديو أن يعود لشغل كرسى الأدب فيها . ولكنه يرفض هذا العرض ، ويؤثر مرة اخـرى أن يخوض ميدان السياسة ، فيرشح نفســه لانتخابات المجلس النيـابى فى سنة ١٩٠٨، وينجح فى هذه الانتخابات ويعود ليصبح نائبا عن مونتفيديو خلال فترة أخرى تمتد الى ســنة ١٩١١ ، ويوجه اهتمـامه فى منصبه الجديد الى ما كان اغلب عليه فى فترته النيابية الماضية : الى الشــئون الثقافية والفكرية دون أن يقحم نفســه فى ميادين المنازعات الســياسية والحزبية ، وفى نفس هـذه السنة (١٩٠٨) ينتخب رئيســا لاتحـاد الصحافة .

وفى سنة ١٩١٠ يعهد الى رودو والى الشـــاعر ثور يليـــادى سان مارتين بتمثيل أورجواى فى السفارة التى أرسلت للمشاركة فى الاحتفالات بمناسبة مرور مائة عام على استقلال شيلى ، ويلقى بهذه المناسبة فى تلك الاحتفالات خطابا جامعا يضمنه آراءه فى وحـدة بلاد أمريكا اللاتينيـة الناطقة بالاسبانية ويستقبله شـعب شـيلى وحكومتها بحفـاوة عظيمة باعتباره المفكر الأول فى هذه القارة .

وفى سنة ١٩١١ تنتهى فترته النيابية الثانية ، فيتقدم للانتخابات الجديدة ويفوز للمرة الثالثة بمقعـد النيابة فى البرلمان عن مونتفيديو . ويستمر فى هذا المنصب النيابى حتى سنة ١٩١٤ ، على أنه ــ الى جانب أعماله الأدبية والصحفية ــ يقوم فى هذه المرة بنشاط سياسى كبير . اذ يتزعم احدى كتل الحزب الأحمر المناهض لرئيس الجمهورية ولحكومته، ويؤدى ذلك الى صدامه مع نظام الحكم القائم اذ أنه بفضـل مكانته فى الأوساط الأدبية والصحفية والسياسية يصبح هو رأس الكتلة المعارضة للحكومة . ويؤدى ذلك الى اضطهاد الحكومة اياه ومحاربته فى مختلف الميادين .

وعلى الرغم من ذلك فان مكانتـه تتـوطد وترتفع حتى ان المجمع اللغوي الاسبانى يختاره عضوا مراسلا له فى أورجواى .

وفى سنة ١٩١٤ تشب الحرب العالمية الأولى . ويكون لهذا الحزب اثر كبير فى نفسـه ، على انه يواصل عمله الصحفى ، فيعهد اليه برياسة تحرير جريدة « التلغراف » ، وفى أثناء هـذه السنوات يجمع كثيرا من مقالاته وبحـوثه النقـدية فى كتب ينشرها فى أورجـواى وفى غيرها من البلاد . ففى سنة ١٩١٥ ينشر فى مدريد (اسـبانيا) مجمـوعة تضم خمسا من مقالاته من بينها مقالة عن « سيمون بوليفار » .

وفى سنة ١٩١٦ يزداد ضيقه بالأحوال فى بلاده ، لا سيما بعـد أن

اعتبرته الحكومة عدوا شخصيا لها . وحينئذ يصمم على مغادرة بلاده ، ويعرض عليه فى ذلك الوقت ان يكون مراسلا فى أوربا لجريدة « كاراس اى كاريتاس » (وجوه واقنعة) التى تصدر فى بوينوس ايرس ، فيقبل العرض على الفور . ويحدث قبوله ضجة كبيرة فى البـلاد ، اذ تشـعر الأوساط الفكرية والأدبية بمدى ما يعنيه هجر هذا الكاتب الكبير لبلده بعد أن ضاقت به الأحوال فيه . فتقـدم الى البرلمان مشروعات عديدة بمنحه عدة مناصب تغنيه عن قبول وظيفة فى صحيفة أجنبية ، ولكنه رفض كل هذه المشروعات بحزم واصرار . وفى ١٣ من يولية سنة ١٩١٦ فى عشية اليوم السابق المحدد لسفره يقيم اتحاد الصـحافة له حفـل تكريم ووداع .

وفى اليوم التـالى يبحر رودو متجها الى أوربا ، ويصـل فى أول اغسطس الى لشبونه (البرتغـال) ومنهـا يتجه الى مدريد ، ثم الى برشلونة . ومن اسبانيا ينتقل الى فرنسا ثم الى ايطاليـا ، ومن هـذه البلاد يرسل أولى مقـالاته للجريدة الأرجنتينية التى اوفدته . ولـكن المرض يفاجئه فى ايطاليا وكانت صحته قد تدهورت خـلال السـنوات الماضية ، غير انه يواصل جولته فى مدن ايطاليا ، من شمالها الى جنوبها، ويصـل فى النهـاية الى باليرمو فى جزيرة صقلية يوم ٣ من ابريل وقد اشتد عليه المرض .

وفى ٣٠ من ابريل نقل الى المستشفى وقد اشتدت عليـه آلامه . ولم تفلح جهود الأطباء فى انقاذه ، ففاضت نفسه فى اليوم التالى أول مايو سنة ١٩١٧ ، وبلغ النبأ مونتفيديو فى يوم ٣ من مايو فارتجت له البلاد باسرها ، وارسلت حكومة أورجواى وفدا الى ايطاليا لحمل رفات رودو واعادتها الى مسقط راسه ، وكانت جنازة رودو فى مونتفيديو مظاهرة كبيرة اشترك فيها الشعب كله لتكريم ذلك الكاتب العبقرى الذى ضاق ببلاده وضاقت به حيا ، ثم ادركت ما كان يعنيه بالنسبة لها بعـد أن انطوت صفحات حياته .

وعلى الرغم من قصر عمر خوسيه انريكى رودو اذ انه لم يتجـاوز نحو ست وأربعين سنة فانه خلف انتاجا غزيرا من الكتب والدراســات الأدبية والنقدية كفلت له المكان الأول بين كتاب امريكا اللاتينية خـلال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين .

والكتاب الذى نقدمه بهذه الســطور : « بوليفار » هـو احـدى الدراسات التاريخية التى خطها قلم خوسيه انريكى رودو ، ويعتبر من أجمل صفحات انتاجه وأروعها . وكان رودو قد نشر هــذه الدراســة لأول مرة فى سنة ١٩٠٤ ، ثم أعاد نشرها مع مجمــوعة اخــرى من الدراسات جعل عنوانها « شرفة بروسبيرو El Mirador de Prospero وهو كتاب طبع أكثر من مرة ، واحدى طبعاته هى التى ظهرت فى مدريد (اسبانيا) سنة ١٩١٥ .

وقد كان بوليفار فى نظر خوسيه انريكى رودو هـو المثـل الأعلى للبطل ، وهو يرى فيه أفضل نموذج انسانى ظهر فى أمريكا الناطقة باللغة الاسبانية على طول تاريخ القارة ، وقد الح رودو على هذا المعنى وكرره فى كثير من مقالاته ودراساته الأخرى .

ونحن نرى فى هذه الدراسة عن طريق الترجمة العربية التى نقدمها لقراء العالم العربى لأول مرة مدى دقة التحليل الذى يعرضه لنا رودو لشخصية بطل تحرير امريكا اللاتينية وجمال الاســلوب الذى تميز به ذلك العرض ، ولو ان الترجمــة مهما كانت لا يمكن أن تصــل الى روعة الأصل .

وطبيعى اننا لن نجد فى هذه الدراسة ترجمة مفصلة لحياة سيمون بوليفار ، اذ أن تفاصيل حياة البطل وأحداثها معروفة لقرائه الامريكيين — وهذا هو ماحملنا على أن نتبع هذا التقديم بعرض سريع لحياة بوليفار يستطيع القارىء أن يلم عن طريقه بما تضمنته اشارات رودو فى غضون

دراسته ـ ، فالذى هدف اليه رودو هو أن يقـدم لنـا ملامح البطولة المستخلصة من حياة الزعيم الأسريكى العبقرى الذى سبق عصره وكان أول مبشر بفـكرة الوحدة الأمريكية التى لم تتحقق بعـد على الرغم من مرور نحو قرن رنصف على وفاته .

وقد كان لمقال رودو عن بوليفار اثر بالغ على نفوس شباب الطليعة فى امريكا اللاتينيـة وفى فنزويلا بصـفة خاصـة ، حتى انهم اصبحوا يعتبرون رودو ـ فضلا على مكانته كأديب وكاتب من المع كتـاب قارة امريكا الناطقة بالاسبانية ـ ابا وموجها روحيا. ففى١٩ من نوفمبر سنة ١٩١٣ أصدر الاتحاد العام للطـلاب فى فنزويلا قرارا بتعيين خوسـيه انريكى رودو رئيـسا فخريا للاتحاد ونص فى هذا القرار على انه اتخـذ كلون من الاعتراف بفضل الكاتب الارجوائى وبقيمة مقاله عن سـيمون بوليفار ذلك المقـال الذى يعتبر خير ما صـدر حول بطل تحرير امريكا اللاتينية من دراسات . وقد وقع هذا القرار زعماء الاتحـاد الطـلابى الذين أصبح لكثير منهم فيما بعد مكان قيادة النشـاط الفكرى والثقافى فى فنزويلا .

والواقع هو أن حياة بوليفار التى انقضت فى كفاح مستمر من اجل بلاده تعتبر من أروع النماذج الانسانية لحياة أحد أبطال التحرير . هى سيرة نحن جديرون فى العالم العربى بأن نتأملها ونتعمقها ، اذ اننا سنرى فيها صورة من كفاح أمتنا العربيـة فى سـبيل الاسـتقلال والتحرر ثم الوحدة التى هى الهدف الأسمى من كل ذلك الكفاح .

ان بلاد أمريكا اللاتينية بعيدة عنا حقا من الناحية الجغرافيـة ، ولكن الذى يتأمل أوضـاعها وتاريخ كفاحهـا يرى أن هنـاك كثيرا من الوشائج تربط بين عالمنا العربى وبين ذلك العالم الذى يسعى مثلنا الى التحرر والوحدة .

وفى حياة البطل الفنزويلى سيمون بوليفار صورة حية لذلك الكفاح

الذى يمكننا أن نقرنه بكفاح كثير من أبطالنا الذين عملوا من أجل هــذا الهدف النبيل منذ القرن الماضى حتى اليوم .

وقد عرف خوسيه انريكى رودو ـ أديب أورجواى العظيم وكاتب امريكا الاسبانية الأول ـ كيف يعرض علينـا لمحات من بطولة بوليفار . بقلمه السحرى الرائع وكلمته المتوقدة واحساسه الصادق المؤمن .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى تقديم هذا الأثر الخالد من آثار الفكر الأمريكى اللاتينى ، الذى خطه قلم أحد عباقرة الكتاب الأمريكيين حول سيرة عبقرى أمريكى آخر وبطل من أبطال الحرية على طـول التـاريخ الانسانى كله .

ومن الله نستلهم التوفيق .

د . محمود على مكى

بطل

بوليفار

تحرير قارة أمريكا اللاتينية الأعظم، وعدو الاستعمار اللدود، وخالق مجموعة كبيرة من الدول الأمريكية المستقلة التى تحررت بفضل عبقريته ومواهبه الاستثنائية وايمانه الذى لم يتزعزع أبداً بقضية الحرية.

ولد سيمون بوليفار فى كاراكاس عاصمة فنزويلا فى سنة ١٧٨٣ من أبوين ينتميان الى أسرة إسبانية نبيلة عريقة، وكان أبوه خوان فيثنتى بوليفار Juan Vicente Bolívar ضابطاً كبيراً برتبة مقدم، وأصله من منطقة « الباسك » (فى شمال اسبانيا على جبال البيرينيه الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا). وكان من بيت غنى طائل الثراء. وفقد سيمون بوليفار أبويه وهو فى التاسعة من عمره، فتكفل به جده لأمه المركيز فليثيانو بالاثيو سوخو Feliciano Palacio Sojo الذى تقلب فى مناصب كبيرة عليا وثيقة الاتصال بالعرش الإسبانى.

اعتنى جده بتربيته وتثقيفه على نحو ما كان متبعاً فى تعليم أبناء الطبقات النبيلة الغنية، لعل أكثر أساتذته تأثيراً فى نفسه وأحبهم الى قلبه هو سيمون رودريجث Simon Rodriguez

الذى كان أول من أوحى إلى تلميذه بأفكار الحرية وأشعل فى قلبه جذوة بغض العبودية والثورة على الظلم . وسيمون رودريجث هو الذى حبب إلى بوليفار قراءة الكتب التى كانت تعتبر أناجيل الحرية فى ذلك الوقت أهمها كتابات المفكرين الفرنسيين المبشرين بالثورة الفرنسية من أمثال جان جاك روسو ومونتسكيو .

وينعم ملك إسبانيا على بوليفار وهو لايزال بعد فى سن الطفولة برتبة عسكرية شرفية ، ثم يرسله جده إلى إسبانيا لكى يكمل تعليمه هناك . ويمر فى طريقه بالمكسيك فيحتفى به حاكمها ومجتمعها الراقى ، ولكنه فى هذه الفترة المبكرة من حياته يكشف عن حبه لحرية بلاده ويفوه بعبارات يعتبرها الحاكم الإسبانى جارحة له ؛ وإن كانت الأعذار تلتمس له بسبب صغر سنه .

وحينما يصل إلى إسبانيا يتبين له مدى مايجب عليه أن يعرف عن الملكية الإسبانية ، ويتأصل فى نفسه حب الحرية ، تأخذ فكرة استقلال بلاده فى الاختمار فى ذهنه . ومع ذلك فقد انخرط بوليفار فى سلك الحياة الاجتماعية الأرستقراطية فى مدريد. وكانت رقته ودماثة أخلاقه ومعرفته بآداب المجتمع قد

مهدت له السبيل لاحتلال مكانة رفيعة فى مجتمع البلاط ، وفى غمار هذه الحياة المرفهة الناعمة يتعرف بوليفار على فتاة جميلة من أسرة نبيلة هى ماريا تيريسا رودريجث دى تورو Maria Teress Rodriguez del Toro ، ويحبها بوليفار حباً عميقاً . ويعزم على الزواج بها ، ولكن أباها يؤثر التريث لصغر سن الفتاة وصغر سنه هو . وحينئذ يتوجه الى فرنسا . ويتعرف هناك على نابوليون بونابرت وتستأثر شخصية نابوليون بإعجابه ويصبح فى نظره المثل الأعلى حتى يتغير رأيه فيه بعد ذلك . ويعود بوليفار الى إسبانيا ويتم زواجه من الفتاة التى أحبها ويسافر الى فنزويلا .

ولكن زوجته الشابة لا تلبث أن تموت بعد سنة واحدة من الزواج ، ويملأ الحزن قلبه . فيعود الى إسبانيا ويشغل نفسه بدراسة الرياضيات ، ويلتقى مرة أخرى بأستاذه القديم سيمون رودريجث ، ويقومان معاً بجولات فى أوربا . وفى هذه الأثناء يأتيه نبأ تتويج نابوليون امبراطوراً ، فيصاب بخيبة أمل مريرة ، اذ أنه كان يرى فيه مثلا أعلى لبطل من أبطال حرية الشعوب ورجل مجرد من المطامع والرغبات الشخصية .

ويعود أستاذه سيمون رودريجث الى تأصيل الأفكار الثورية فى نفس تليمذه . ويبلغ به الأمر الى أن يأخذ عليه عهداً وهو على قمة جبل « افنتينو Aventino » فى روما أن يكرس حياته للكفاح من أجل استقلال بلاده .

وفى سنة ١٨٠٧ يعود بوليفار الى بلاده بعد جولات طويلة فى فرنسا وهولندا وألمانيا وايطاليا. وكانت بعض الحركات الثورية العاملة من أجل استقلال أمريكا قد وقعت فى هذه الأثناء فى فنزويلا ، وكان أهمها تلك التى قادها الجنرال فرانسسكو دى ميراندا Francisco de Miranda فى سنة ١٨٠٦. وكان ميراندا قد عرف الثورة الفرنسية عن كثب وأخذت أفكارها بنفسه فعمل على نشرها والدعوة الى استقلال البلاد الأمريكية التى كانت لاتزال خاضعة للحكم الإسبانى . وتكررت هذه المحاولات حتى بلغت ذروتها فى سنة ١٨١٠ . وفى هذه الأثناء كانت إسبانيا نفسها قد وقعت تحت نير الغزو الفرنسى، تحت وطأة نابوليون بونابرت . ويثور الفنزويليون ويطالبون الحاكم الإسبانى بأن يعتزل حكم البلاد . ويشترك بوليفار مع ميراندا فى تأليف « الجمعية الوطنية » التى تعلن استقلال فنزويلا فى ٥ من يولية سنة ١٨١١ .

ولكن الخلاف شجر بعد ذلك بين ميراندا السياسى المحنك وبوليفار المندفع المتحمس فى صميم الجبهة الوطنية ، وتازمت الحالة بعد أن أتت أنباء من إسبانيا بأنها تستعد لسحق الثورة الاستقلالية ، وكأن ذلك كله لم يكن كافياً حتى أضيفت إليه بعض كوارث الطبيعة ، إذ لم يمض على إعلان الاستقلال عام واحد حتى اجتاح كاراكاس فى يولية سنة ١٨١٢ زلزال عنيف ذهب ضحيته عشرة آلاف نفس فى العاصمة . ونرى هنا وفى غمرة هذه الكارثة المروعة مظهراً له دلالته من جوانب شخصية بوليفار ، فهو يعتلى أمام الجماهير المذعورة حطام البيوت المهدمة وركام الأحجار ويصيح فى حماسة ملتهبة : « إذا كانت الطبيعة تعترض طريقنا فإننا سنكافحها حتى نحملها على طاعتنا والانقياد لنا !! » .

غير أن هذه الثورة الأولى تنتهى إلى الفشل . ويتمكن القائد الإسبانى مونتفيردى Monteverde من استعادة السلطة ، ويكون أول ما يعمله للانتقام من بوليفار هو مصادرة كل أملاكه . ويضطر بوليفار إلى السفر بطريق البحر إلى قرطاجنة (كولومبيا) ، ولكنه هناك يعيد المحاولة ويبشر بدعوة الاستقلال ، ويتزايد أنصاره حتى يبلغوا خمسمائة رجل .

وبهذه القوة الضئيلة يبدأ بوليفار حملته الشهيرة لتحرير بلده كاراكاس . وتتوالى انتصاراته على القوات الإسبانية : فى أوركونس Horcones وتاجوانس Taguanes وموسكيتيرو Mosquitero ، ويتمكن أخيراً من هزيمة غريمه الحاكم الإسبانى مونتفيردى. ويحمله شعب كاراكاس على الأكتاف فى موكب النصر وتنادى به الجماهير « بطلا للتحرير » وهو اللقب الذى سوف يحمله بوليفار منذ هذه اللحظة ويدخل به التاريخ من أوسع الأبواب .

ولكن الأمور لم تستتب له بعد ذلك. إذ سرعان ما يدب الخلاف بين الفنزويليين وتخوض البلاد حرباً أهلية تمزق شمل جيش بوليفار نفسه ، فينسحب مرة أخرى إلى قرطاجنة ومنها إلى بوجوتا حيث تنادى به الجماهير هناك قائدا للجيوش المتحدة . وتأتى الأنباء بعد ذلك بأن جيشاً إسبانياً كبيراً تحت قيادة الجنرال موريو Morillo قادم فى طريقه إلى بوجوتا . ويفت اليأس فى عضد أنصاره . فيضطر إلى مغادرة البلاد والتوجه إلى جامايكا ، وهناك يكتب رسالته المشهورة التى عرفت باسم «رسالة جامايكا» ، وهى تعتبر وثيقة تاريخية من

الطراز الأول . ففيها يحلل الأوضاع السياسية لبلاد أمريكا اللاتينية تحليلا يشف عن دقة الملاحظة ونفاذ النظرة وتسوء أحواله فى جامايكا ويضطر إلى الاستدانة ، ولكنه لاييأس من قضية حرية بلاده ، وهو لا يكف عن دعوة كل الفنزويليين اللاجئين إلى الاجتماع به . ولكن الخلاف يدب بينه وبين بعض الضباط من مواطنيه . ويرى نفسه مضطرا إلى ترك مشروعه الذى كان يسعى إلى تأليف جيش جديد .

بيد أن ذلك لايلقى اليأس فى نفسه، فيقرر العودة إلى بلاده، ويكون نزوله هذه المرة بمدينة أنجوستورا Angostura ، وكانت أشبه بقرية فقيرة تقع على ضفة نهر الأورينوكو وتتألف منازلها من عدة أكواخ . وعلى الرغم من ذلك فإنه يشرع على الفور فى تأليف جيش كبير قادر على أن يخوض جولة جديدة مع الجنرال موريو . ويسمع الناس فى أوربا ببوليفار ويرى فيه الكثيرون بطلا من أبطال الحرية فيقدم له الكثيرون من العسكريين المحترفين خدماتهم ويعرضون عليه أنفسهم ، وهكذا يتضخم جيشه بالمتطوعين الفنزويليين والأمريكيين وبالمغامرين الأجانب . وتتزايد شعبية بوليفار ، ويعلن بايث

Paéz زعيم فرسان السهول أنه هو وكل أنصاره ينادون ببوليفار زعيما وقائداً لهم . ويضع بايث نفسه فى خدمة الزعيم ، وهكذا يكون بوليفار ذلك الجيش الغريب المؤلف من أخلاط متعددة من الناس ، لا يكاد يربط بينهم إلا الإعجاب بشخصية بوليفار والثقة فيه .

وفى سنة ١٨١٨ يهاجم بوليفار خصمه القديم الجنرال موريو بجيشه ويضرب عليه حصاراً فى قرية « كالابوثو Calabozo » . ولكن القائد الإسبانى ينفذ من هذا الحصار ويتمكن من جمع جيشه وضرب قوات بوليفار ضربة ساحقة تشتت شملها فى معركة « لابورتا La Puerta » ، ويلجأ بوليفار من جديد إلى أنجوستورا . ولا تنال منه تلك الهزيمة . بل إنه يعمل على إعادة تنظيم جيشه ويفكر فى مشروع هائل مذهل هو غزو بوجوتا وتوحيد فنزويلا وكولومبيا وتأليف ما كان يريد تسميته « جمهورية كولومبيا الكبرى » . ويدعو أنصاره إلى مؤتمر عام يعرض فيه آراءه الثورية ويشرح أفكاره فى تنظيم الدولة الجديدة ويفوضه المؤتمر فى اتخاذ ما يراه من إجراءات . ولكنه يتريث فى انتظار الشتاء حتى يشن هجومه الكبير ، ومع ذلك فهو لا يضيع وقته ؛ بل يتحرك فى كل

جبهة ويبعث بتعليماته إلى رجاله المنبثين فى أنحاء البلاد .

وفى شتاء سنة ١٨١٩ يبدأ بوليفار زحفه الكبير على كولومبيا ، ولم يكن جنوده فى حالة نفسية عالية ، فقد كان اليأس غالبا عليهم ، وكانت أقواتهم محدودة حتى إنهم كانوا يقضون معظم أيامهم دون أن ينالوا من الطعام إلا وجبة واحدة فى اليوم ، ولكنه كان كأحدهم لا يميزه شىء عنهم ، وكان يشاركهم كل ما كانوا يقاسونه من البرد والجوع . ويصل أخيرا إلى جبال الأنديز فى غرب كولومبيا (أو غرناطة الجديدة كما كانت تسمى فى ذلك الوقت) . وعلى الرغم مما عاناه جيش بوليفار من متاعب هذه المسيرة الطويلة فإنه يحرز انتصارا كبيراً على القوات الإسبانية فى موقعة « بوياكا Boyacá » فى ٧ من اغسطس سنة ١٨١٩ . ويمهد هذا الانتصار السبيل له لدخول بوجوتا دخول المنتصرين . أما نائب الملك الإسبانى فإنه يلوذ بالفرار . ويعلن بوليفار تأسيس جمهورية كولومبيا الكبرى المستقلة . ويعتزم بوليفار تحرير موطنه فنزويلا من جديد ، فيعود إلى أنجوستورا حيث ينظم قواته للزحف على كاراكاس . وكان الجنرال موريو فى ذلك الوقت يأخذ أهبته للقاء بوليفار ويطلب إلى مدريد إمداده بقوات جديدة ، ولكن هذه القوات لا تصل ، إذ أن قائدها يثور على حكومة بلاده وهو فى الطريق . وحينئذ يؤثر موريو التفاوض ، ويتم لقاء الغريمين فى قرية سانتانا Santa Ana على نحو يعيد إلى الأذهان صور الفروسية

القديمة بما فيها من النبل واحترام الخصم ، إذ يتعانقان ويتحادثان كما لو كانا صديقين قديمين . ويغادر موريو فنزويلا تاركاً الأمر لنائبه لاتورى La Torre ، وتعقد الهدنة بين الطرفين ولكن القتال ينشب من جديد بعد ذلك ، وتدور معركة « كارابوبو Carabobo » بين بوليفار ولاتورى فى ٢٤ من يونيه سنة ١٨٢١ ، وتنتهى الموقعة بانتصار عظيم لبوليفار يفتح له الطريق إلى بلده ومسقط رأسه كاراكاس . ويدخل بوليفار العاصمة الفنزويلية من جديد فى وسط مظاهر فرح الشعب وهتافه له .

بوليفار لا يستريح ولا يهدأ ؛ وهو يفكر فى تحرير بقية بلاد أمريكا اللاتينية ، ويمد بصره هذه المرة إلى كيتو Quito (عاصمة إكوادور) وفى مارس سنة ١٨٢٢ يبدأ بوليفار حركته فى هذه الحملة الجديدة يرافقه مساعده العظيم القائد سوكرى Sucre وفى مدينة باستو Pasto تدور معركة عنيفة يوشك فيها الإسبان على الإيقاع بجيشه ، ويطلب بوليفار من زميله فى الكفاح وبطل تحرير الأرجنتين وشيلى سان مارتين إمداده بنجدة سريعة ، فيرسل إليه هذا ألفاً وأربعمائة جندى تحت قيادة سانتا كروث Santa Cruz ، ويتولى سوكرى ساعد بوليفار الأيمن قيادة المعركة التى تدور فى بتشنشا

Pichincha فى ٢٤ من مايو سنة ١٨٢٢ . ويحرز انتصاراً كبيراً على الجيش الإسبانى . فتتمهد طريق بوليفار الدخول كيتو وتحرير إكوادور . وضمها إلى جمهورية «كولومبيا الكبرى» . ومن كيتو يقوم بوليفار إلى جواياكيل Guayaquil (فى بيرو) . ويأتى محرر الأرجنتين سان مارتين نفسه إلى هذه المدينة لكى يلتقى ببوليفار ويتم هذا اللقاء فى يومى ٢٦ و٢٧ من يولية سنة ١٨٢٢ . ويدور فى جو من الصداقة والإعجاب المتبادل . ولا يلبث سان مارتين بعد ذلك اللقاء التاريخى أن يقرر الانسحاب من بيرو وترك الميدان لبوليفار ويستقبل البيروانيون بوليفار استقبالهم للمنقذ المخلص . ولكن الجيش الإسبانى لايزال يتربص بالبطل . فيعيد تنظيم صفوفه ويلتقى بجيش بوليفار فى وادى «خونين Junîn» . ولكنه يمنى بهزيمة فادحة . ويتجه بوليفار على أثر ذلك إلى «ليما» تاركاً قواته تحت قيادة سوكرى . وفى ٩ من ديسمبر سنة ١٨٢٤ تدور معركة أياكوتشو Ayacucho الشهيرة التى أحرز فيها سوكرى أعظم انتصار له فى حياته العسكرية على فلول الجيوش الإسبانية . ويبلغ النبأ بوليفار وهو مجتمع بقواده وأعوانه فلا يتمالك نفسه من الصياح وقد أخذت الحماسة بمجامع نفسه «النصر ! النصر ! ...» وإذا كان بوليفار لم يحضر هذه المعركة الفاصلة فإنه لاشك فى أن الانتصار العظيم الذى أحرزه سوكرى فيها إنما كان بفضل بوليفار وواحدة من مآثره كقائد للخطط العسكرية .

غير أن فرحة بوليفار بذلك النصر لاتلبث أن تتبدد وتعقبها الحسرة والألم حينما تصله الأنباء بأن مناطق الشمال التى استطاع تحريرها لم تلبث أن عمتها الفوضى وانتشرت فيها الخلافات والمنازعات الأهلية ، بل إن مختلف الولايات التى لم تفرغ بعد من تحرير أراضيها قد أسرعت إلى المطالبة بانفصالها عن « جمهورية كولومبيا العظمى » مؤلفة دولا مستقلة . ويستبد الألم والقنوط ببوليفار فى هذه اللحظة ، وهو يرى البناء الذى شاده بجهوده وتضحياته حجراً حجراً موشكاً على التصدع والانهيار ، وينطق بهذه العبارة التى تركزت فيها المرارة واليأس : « لقد حرثت فى البحر ! ... »

ويعود بوليفار إلى بوجوتا ، وقد انهدت صحته ولم تعد قواه تسمح له بمواصلة الكفاح ، يعود مريضاً كسيراً مهيض الجناح ، وكأن ذلك لم يكن كافياً لإيلام نفسه ، حتى يبلغ الأمر إلى حد التآمر على حياته هو فى سنة ١٨٢٨ حينما يتسلل جماعة من معارضيه إلى داره عازمين على اغتياله ، لولا أن بوليفار يحس بما كان يبيت له ، فيهرب من النافذة . وبعد ذلك يرد نبأ آخر كان له وقع أليم فى نفس بوليفار : هو موت صديقه وزميل كفاحه وساعده الأيمن الجنرال سوكرى بطل

موقعة أياكوتشو . على أيدى بعض المتآمرين الذين اغتالوه بخسة ونذالة ، وفى هذا الوقت تعرض عليه بوجوتا رياسة جمهورية كولومبيا بعد أن تمزقت وحدتها وانفصلت عنها فنزويلا وبوليفيا . ولكنه يرفض هذا العرض بكلمات يقطر منها الحزن المرير ، عبر فيها عن خيبة آماله ويأسه . ويحس بوليفار باقتراب نهايته . فيكتب وصيته وهو بعد فى السابعة والأربعين من عمره . وفى ١٧ من ديسمبر سنة ١٨٣٠ يلفظ بوليفار أنفاسه الأخيرة ، بينما يحف به بعض أصدقائه المخلصين وكان قد اعتزل الحياة العامة فى قرية « سانتا مارتا » على شاطىء البحر . وبقى هناك خلال الشهور الأخيرة من حياته يجتر آلامه ويفكر فى مصير الأمة التى استطاع تحريرها ثم تنكر له فيها رجال كان له هو الفضل عليهم .

وهكذا انتهت حياة بوليفار الحافلة المليئة بالحركة والكفاح على الرغم من قصرها . وفى سنة ١٨٤٢ نقلت رفاته إلى كاراكاس . واحتفى الشعب الفنزويلى بوصول ما بقى من جسد ابنه البار بما هو جدير به من تكريم وإجلال . وعرفت له أمريكا اللاتينية كلها فضله ودوره الكبير فى إيقاظ القارة من غفوتها وفى تحريرها من الاستعمار الأجنبى ، بل عرف العالم كله كيف يجعل من سيمون بوليفار واحداً من أعظم الأبطال المدافعين عن الحرية فى تاريخ الإنسانية جمعاء .

محمود مكى

سيمون بوليڤار

١٧٨٣- ١٨٣٠

في سطور

كان عظيما فى تفكيره عظيما فى عمله، عظيما فى مجده، عظيما فى محنته، عظيما حتى فى إضفاء ثوب من الجلال على ذلك الجانب المظلم الذى لاتخلو من مثله نفوس العظماء، كان فى النهاية عظيما فى تحمله فى قوة وعزم تلك الضريبة التى قدر على عباقرة الرجال أن يدفعوها كفارة عن عظمتهم ... حينما تخلى عنه الجميع وتركوه يموت وحيداً فى مواجهة مصيره المكتوب. ولو أننا قارنا بينه وبين غيره من عظماء الرجال فلعلنا نجد فى حياة آخرين من طرازه حظاً أكبر من الاتساق والتلاؤم أو قدراً أعظم من النقاء الخلقى أو الروحى. غير أننا لا نجد إلا قليلين لهم مثل شخصيته الطاغية التى تلوح فيها العظمة من أى زاوية نظرت منها إليها، والتى تأسر النفس بما تولده فيها من الإعجاب العميق بالبطولة الحقة الرائعة.

حينما ننظر إلى ما يمثله سيمون بوليفار من الرجولة والبطولة فى المكان الذى عاش على ميدانه وفى ظل الظروف المحيطة به فإننا لا نتمالك أنفسنا من التفكير فى أنه ليس إلا رد فعل هائل، انفجر فجأة بكل مافيه من قوة وعظمة وجلال، بعد عشرة أجيال من الخمول والخضوع والذلة، تحت ربقة

الاستعمار... سيمون بوليفار هو خلاصة مركزة لشعب تفجرت طاقاته فجأة ممثلة فى رجل واحد لكى يثأر لقرون عاشها شعبه من الخنوع والاستسلام .

وتنطلق الروح الحية الفتية الكامنة فى أحشاء مجتمع إنسانى كان مستكيناً مخلداً إلى تخلفه وشقائه كما يكمن ضوء البرق فى ظلمات السحب المتكاثفة . ولكن هذه الطاقة كانت فى حاجة إلى ملابسات مواتية حتى تتيح الفرصة لتفجيرها ودفعها ، فاذا أتت هذه الدفعة لم تكن تلك الطاقة فى حاجة إلى شىء آخر ، إذ أن قوتها التلقائية كافية لتوليد مزيد من القوة . أما تلك الدفعة الأولى فهى تتوقف على القدر ... فبيد القدر وحده أن يحدث فى قلب المجتمع مثل تلك الشرارة الخاطفة التى تمثل نقطة البدء فى الانطلاقة الجبارة .

وماأكثرما تتعاقب الأجيال فى أمة دون أن تتمكن الطاقة الكامنة فيها من أن تجد وسيلة للتفجير . ثم يأتى الجيل الذى استودعه القدر تلك الشرارة الأولى ، وتأتى المناسبة المواتية . ونرى تلك الطاقة الكامنة فى رجل مضت حياته عادية رتيبة ، دون أن يشعر هو نفسه بأن القدر قد ادخره لأداء

دور تاريخى تتوقف عليه حياة شعبه ، دور يضمن له بعد ذلك خلوداً لم يكن يخطر له على بال ؛ ومجداً ما كان يظن أبداً أنه سيكون من حظه .

شىء من هذا وقع فى حياة بوليفار ، لعله كان يحس إحساساً غامضاً بأن موعد الثورة فى أمريكا اللاتينية قد حانت ساعته ، فقد كان منذ أن تفتح ضميره للعالم يساهم بنصيب فى ذلك الانفعال الذى كان يعتمل فى نفوس أهل وطنه والذى كان تمهيداً لتلك الثورة . ولكن هذا الهياج الغامض لم يطبع شبابه بشىء مميز يوحى بأن طاقة شعبه التى أوشكت على التفجير كانت رهينة بشخصه هو .

كانت أحلام بوليفار الأولى فى شبابه المبكر أحلاماً مذهبة ... تعطشاً إلى الحياة بكل ما فيها من جمال وعظمة ومتعة . ولو أن التاريخ أو القدر لم يدق النذير فى ذلك الوقت بقرب الساعة التى سوف تتحرر فيها أمريكا ... لو أن هذه الساعة تأخرت بعض الوقت ، لما انتظرنا من بوليفار إلا أن يواصل حياة رخية ناعمة ... حياة سيد نبيل متعود على الرفاهية ، قلق لا يستقر فى مكان ، يوزع وقته بين رحلاته وضيعته فى

« سان ماتيو » وحياة كاراكاس الهادئة الوادعة التى كانت تميزها فى آخر عهدها بالاستعمار الإسبانى ، كان بوليفار شاباً نبيلا محباً لمتع الحياة الحسية ؛ وإن كانت العبقرية كامنة فيه بادية الملامح منذ صباه المبكر . ولكنه لم يكد يتصل بالمجتمع الأوربى الذى كان خارجاً لتوه من الحروب النابوليونية الأولى حتى أجج فيه ذلك الاتصال الجذوة الخامدة : جذوة الرغبة فى الحرية السياسية ، ولكن التطلع إلى الحرية فى ذلك الوقت لم يكن يمثل فى نفس بوليفار إلا محاولة للتفوق على النفس وطموحاً إلى شعور نبيل مستوحى من روح الحضارة الكلاسيكية ، معاد لكل نزعة من الابتذال والديماجوجية .

تفتحت روح بوليفار بفضل هذا الاحتكاك ، ولكن ذلك لم يكن هو المجد الذى قدر له بعد ذلك أن يحظى به ، وإنما كان بريقاً لذلك المجد ، إذ لم تكن الظروف تعين حينئذ على أن تتوهج نفسه بأكثر من هذا البريق . كان بوليفار يتمتع فى شبابه المبكر بكل ما يمكن أن يطمح إليه شاب فى مثل سنه : محتد نبيل ، وثروة عريضة أورثته إياها أسرته ، وذكاء وقاد ، ومواهب كثيرة صقلتها تربية أنيقة فى وسط غنى مرفه ، وذوق مرهف

مقبل على متع الحياة فى تعطش ونهم ، وميل إلى الأدب والفن الجميل .

إذا كان بوليفار قد عرف كيف يستكشف أعماق روحه فيما بعد فإن تلك القشرة التى كانت تغطى شخصيته لم تختف تماماً بمرور الوقت . لقد ظل بوليفار دائماً حتى نهاية حياته ذلك «الشاب المغرم بكل ماهو جميل » كما قيل مرة عن أفلاطون وعن طرازه من الأرواح . حتى فى بطولته ومجده ظل بوليفار دائماً هو نفسه الرجل المهذب الأنيق ذا الوقفات التى تصلح نماذج لتماثيل الخالدين ، والإشارات المهيبة الوقورة التى قد تبدو مسرحية لأولئك الذين لم يستطيعوا الوصول إلى استكناه أعماق شخصيته ، غير أنها فى الحقيقة ليست إلا لمسات تكمل صور أمثاله من أولئك الرجال الذين بذلوا أنفسهم وأرواحهم فى جهاد لا ينقطع ، دون أن يتكلفوها أو يصطنعوا فيها العظمة ، وإنما هى فيض من أرواحهم التى امترجت فيها البطولة بالإحساس الفنى التلقائى . هو شىء تنبه إليه الناقد الأدبى والفنى « تين » حينما شبه فى تحليل نفسى رائع سيف نابوليون بإزميل المثال « ميكيلا نجيلو » ، إذ رأى

فى هذا وذاك أداتين من أدوات العظمة وإن كان ميدان الأول هو معامع القتال وميدان الثانى كتل الصخر والرخام .

هكذا يبدو لنا بوليفار منذ اليوم الأول الذى عاهد فيه نفسه على الكفاح ، حينما صعد فى زيارته لروما إلى قمة جبل الآفنتينو كأنه نبى صاعد إلى لقاء وحى ربه ، ومن هناك أطل على البحر العريض الممتد أمامه .. بحر الحرية والعظمة . وكأنما كان بوليفار يخاطب ضمير تلك الحضارة القديمة العريقة حينما قطع على نفسه العهد بأن يحرر أمته ويحطم أغلالها . وهكذا أيضاً يبدو لنا بوليفار بعد ذلك فى كاراكاس حينما توجه الى الجماهير المذعورة الخائفة حينما اتفق وقوع زلزال شديد مزق المدينة ، والبلاد فى مستهل ثورتها على الاستعمار .. فقد نصب بوليفـــار قامته فى كبرياء على أنقاض كنيسة سان خاثينتو المحطمة وتدفقت من بين شفتيه الكلمات وهو متوجه الى تلك الجماهير داعياً إلى ضبط النفوس ومواصلة الكفاح فى سبيل القضية الكبرى . كانت كلماته فى هذا المقام أروع وأوقع فى النفوس من صيحة أجاكس المشهورة « إذا اعترضت طريقنا الطبيعة فعلينا العهد بأن نقاتلها حتى نخضعها ونذلل قيادها » .

كان بوليفار هو هو دائماً ... فى قلب المعركة ، وفى الانتصار ، وفى دخوله الظافر للمدن التى تغلب عليها ، وفى مزاولته لشئون الحكم ، وفى أثناء الحفلات الأنيقة ، إيماءاته وحركاته وسكناته كانت صورة صادقة خارجية لذلك الشعور الباطنى بالعظمة والبطولة . حتى فى اللحظات العصيبة التى كان خلالها فى صميم المعركة منقطعاً إلى نشاط محموم فرضته عليه حرب رهيبة قاسية ، لا نرى هناك مايحول بينه وبين تكريم ذكرى أصدقائه وأعوانه ممن استشهدوا فى القتال على نحو بالغ الفخامة كما حدث عندما أمر بتنظيم ذلك الموكب الحافل ، الذى كان يبدو كما لو كان من نمط تلك الاحتفالات والطقوس الدينية التى كانت شائعة بين الشعوب الوثنية القديمة ، والذى حمل قلب «جيراردو» فى صندوق مغلق تحرسه فرق من الجيش من « باربولا » حيث سقط البطل الشهيد حتى كاراكاس . ولنشر إلى لفتة أخرى من لفتات الجلالة والعظمة كان لها فى نفوس معاصريه أثر عميق وصدى خالد ، هى موقفه بعد انتصاره وبعد أن قامت كولومبيا دولة مستقلة ذات سيادة ، حينما دخل مقر أول مجلس نيابى فى عاصمة الدولة الجديدة لكى يعلن على شعوب القارة التى تحررت بفضله نبأ تخليه طوعاً عن قيادتها .

وهو أمام مظاهر الطبيعة الهائلة الرهيبة يحس بأن شيئاً فى نفسه يدفعه إلى مباراتها بحيث يصبح هو نفسه أيضا جزءاً من المنظر الرائع ، بل يتحول إلى سيده ومالك زمامه المطلق .

نرى ذلك فى صعوده إلى قمة جبل « التشمبوراثو (١) » ، وخطابه الذى ألقاه هناك فى أسلوب عنيف صارخ وإن كان صادقاً مفعماً بالإخلاص ، لقد كان يتملكه حينئذ شعور بالاعتداد بالنفس والإيمان العميق بأنه قام بتحقيق شىء فوق طاقة البشر ، إذ استطاع أن يطأ هامة الجبل الشاهق ، وأن يعلو على هضبة « الكوندامينى » ، ويصل إلى مالم يصل إليه الرحالة والمستكشفون مثل همبولت(٢) ، ويدع أثراً له فى مكان لم يخلف أحد قبله أى أثر فيه .

ومن جديد نراه فى كولومبيا على مقربة من مدينة بوجوتا متأملا ذلك الشلال الهائل المتحدر على الصخور : شلال تكنداما(٣) بارتفاعه الهائل وروعة انصباب المياه من فوقه . وكأننا به وهو ينظر إلى روعة المنظر هناك وقد أسكرت الطبيعة روحه بأسرارها فإذا به مستغرق فيها كأنه صوفى قد غلبه التواجد والفناء فى ذات ربه . ويعبر بوليفار مجرى النهر . ويرى هناك فى النقطة التى يبدأ فيها انحدار المياه الهائل فوق الصخور حجراً لا يبعد عن الضفة إلا بقدر ما تستغرقه وثبة رجل . ويتوقف بوليفار دون أن يخلع عن قدميه حذاء الركوب الطويل الذى يثقله الحديد ، ثم يقفز قفزة هائلة إلى حيث ذلك الحجر الأملس الذى صقله ثبج المياه ، ويشد قامته

عليه كما لو كان قاعدة تمثال ، وينظر من فوق ذلك الحجر دون أن يصيبه الدوار مطلعاً على الهوة السحيقة الرهيبة التى تكاد تبتلع كل من يرمقها بعينيه !..

نرى هنا مظهراً من مظاهر شخصيته الكامنة فى أعماق نفسه والتى عبر عنها ،وهو فى ريعان شبابه وسنه لاتجاوز العشرين عاماً. حينما كان لايزال مضيعاً زهرة شبابه بين عواصم أوربا . إذ كان يدلى بهذا الاعتراف فى خطاب بعث به إلى صديقته البارونة « دى ترو بريان » :

« أصدقك القول أنه تعجبنى مظاهر الفخامة والترف أكثر مما تعجبنى اللذات الحسية نفسها ، فمظاهر الترف تبده لى ممثلة لجو زائف من المجد . صحيح أنه أجوف لاقيمة حقيقية له . ولكنه مجد على كل حال » . ومثل هذا التصريح صادر من أعماق طبيعة بوليفار التى لم تعرف التكلف والإسرار بشىء والجهر بآخر . والحقيقة هى أن بوليفار فى كل أعماله وأقواله كان يصدر عن تلقائية خالصة وإلهام دفين . وهكذا كان بوليفار رجلا ملهما فى كل نواياه ومقاصده ، مندفعاً حماسياً فى كل تصرفاته وأعماله .

كانت روح بوليفار من طراز تلك الأرواح التى تكمن فى قرارتها طريقة غريبة غامضة للتفكير والعمل تخرج عن دائرة الوعى البشرى . هو من نوع أولئك الرجال الذين لايصدر سلوكهم عن تقدير محكم متزن للأمور . وانما عن تلك القوة الطاغية النابعة من الغريزة ... من تلك الغريزة الفطرية التى تلهم النحل كيف تبنى خلاياها بنظام لانكاد نرى نظيراً لإحكامه وإتقانه مع أنه لا يخضع لقوانين المنطق الإنسانى المتعارف عليها . وهكذا نرى انتصارات بوليفار الرائعة لاتقوم على ذلك التقدير الواعى للأمور . وانما كان يكفيه فيها الإحساس المفاجىء الذى يشبه ومضة الوحى فى النفوس المؤمنة . ثم التنفيذ السريع الذى لايتوقف أمام دواعى الحذر والتلبث . أما فى الهزيمة فنحن نراه وقد تزايدت شخصيته ضخامة وعظمة كما لم نر فى أى بطل آخر من أبطال التاريخ ، وكلما زادت فداحة الانكسار وشدته ولد ذلك فى روحه قوة جديدة قادرة على مواجهة المحنة والصمود لها . وهو فى هذا المظهر نفسه كما هو فى وقت الانتصار لايصدر عن تجربة ووزن للاحتمالات ، وانما تصدر أعماله عن ردود فعل فطرية مباشرة غير واعية . وما أصدق تلك الكلمة التى قالها عنه غريمه الجنرال الإسبانى موريو وأجمل فيها صفات بوليفار فى وقت المحنة : « انه أبعث للخوف والرهبة فى هزيمته منه فى انتصاره » .

والذى يتأمل حملات بوليفار يرى أنها لم تكن ثمرة خطة منتظمة رسمت بمنهج محكم أو بتقدير يربط الأسباب بالنتائج ويزن قوته بقوى أعدائه وخصومه . لا ... لانرى شيئاً من ذلك وإنما هى هجمات هائلة تتعاقب كأنها أمواج بحر لايعرف المرء فيه أين تبدأ هذه الموجة ولا أين تنتهى تلك ، وتمضى هذه الحملات : ضربة هنا وضربة هناك ، وقد تنكسر حملة ويقضى على آخرها ، ولكن لا تلبث أن تنطلق أخرى فى مكان لايتصوره الخصوم ، ولا تزال الضربات تتوالى حتى تصل الى الحد الذى لا يكون بعده مجال للتراجع أو الاستسلام ، وحينئذ نرى الانتصار ماثلا قوياً ، بل هو يزداد قوة وتوطداً ، وينتشر من مكان إلى آخر كأنه سيل جارف ينساح على سلسلة جبال الأنديز : كل جبل منها يتحول إلى معلم من معالم النصر الكبير الساحق .

لم ير أحد من أبطال التاريخ كما رأى بوليفار من تعاقب الانتصارات التى كانت تبدو حاسمة نهائية، والهزائم التى لايشك غيره من القادة والزعماء فى أنهاهى القاضية التى لامجال بعدها للنهوض من العثرة ، ومع ذلك فلا الانتصار ألقى على بصره غشاوة من الغرور ، ولا الهزيمة فتت من عضده أو ألحقت به اليأس والاستسلام .

فى لحظة من اللحظات رأى بوليفار نفسه تائراً انتهى أمره الى الفشل فأصبح طريداً لعدالة السلطات الحاكمة , فقيراً تأخذ بخنقه الضائقة المادية . ومع ذلك فإننا نراه فى هذه الظروف البالغة السوء يضطلع بعمل عسكرى كفل له ذروة المجد، الشهرة . ونحن نعنى بذلك حملته المذهلة التى قادها فى سنة ١٨١٣ ، بينما لم يكن عدد رجاله يتجاوز خمسمائة . بهؤلاء الرجال بدأ بوليفار تلك الغزوة التاريخية التى استغرقت مائة يوم متوجهاً من سفوح جبال الأنديز فى غرناطة الجديدة (جمهورية كولومبيا الآن) حتى قصر القيادة الإسبانية العامة فى كاراكاس (فنزويلا) . وفى نهاية هذه الحملة يسطع نجمه فى تلك العاصمة ويرتبط اسمه إلى الأبد باستقلال أمريكا اللاتينية . فيدعى منذ هذا التاريخ بذلك اللقب الذى أصبح علماً عليه . «محرر القارة» .

ولا يمضى على هذا الانتصار الهائل عام واحد حتى نرى بوليفار هارباً لاجئاً إلى سواحل البحر الكاريبى . وقد تخلى عنه أتباعه وتنكروا له . وبدا كما لو أن كل ذلك المجد قد استحال إلى دخان . وأن هالة العظمة التى توجت رأسه لم تعد تشفع له إزاء غضبة أولئك الذين كانوا يمدون إليه أصابع الاتهام

ويسيئون إليه أبلغ الإساءة . ولكننا نرى هنا كيف تتكرر المعجزة : فى الوقت الذى أطل فيه الشامتون والمتربصون لينظروا ، أين يذهب بوليفار لكى يجتر مرارة الهزيمة والهوان ، إذا بهم يرونه هناك متربعاً على الذروة من جديد : فى « غرناطة الجديدة » (كولومبيا) وقد قبضت يداه على زمام الأمر بعد أن خال الجميع أنه قد أفلت منه إلى الأبد . وإذا به يدخل بوجوتا دخول الظافرين كما دخل إلى كاراكاس من قبل ، حاملا إليها الحرية و الكرامة .

وتنطوى صفحة هذا الانتصار . ومرة أخرى نرى بوليفار وقد عصاه أتباعه وأرغم على أن يتخلى لمنافس مغمور عن الأسلحة التى كان يستعد بها لمعاودة الكرة على فنزويلا . ويبدو أن نجمه قد أفل ، ولكننا لا نلبث أن نراه يعود للظهور ... هذه المرة فى « هايتى » ، ومن هناك يقود حملتين متواليتين لإرساء قواته على أرض القارة . ولكن محاولته تفشل فى المرتين ، بل تنتهى الحملة الأخيرة بسحق كل قواته و التشهير به . وتركه وحيداً يواجه تهجم العامة واستهزاء بعض منافسيه الصغار به وتوقحهم عليه .

غير أن الحكم و القيادة كانا شيئاً طبيعياً فطرياً في نفس بوليفار ... شيئاً ذا قوة قاهرة لا تقاوم ، كأنه إرادة الطبيعة نفسها ، فلا يمر وقت قصير حتى تصمت هذه الأصوات التى انطلقت متنكرة له حاقدة عليه ، ويعود منافسوه الصغار الى السمع له والطاعة ، وترجع إلى يديه مقاليد الثورة ... ويحط بوليفار رحاله فى « غوايانا » حيث يضم له « بيار » تأييده العسكرى من أجل تنظيم حملة جديدة ، ويمتد لهيب الثورة إلى سهول وادى « الأبورى » فى فنزويلا حيث تغلى نفوس الرجال الذين جندهم الجنرال « بايث » (٤) بالتأييد المطلق لبوليفار واستعدادهم لفدائه بأنفسهم .

ويؤلف البطل حكومة جديدة ولكنه يواصل القتال ضد أعدائه ، بل وإخماد الثورات التى يشبها بعض أنصاره ورجاله . ويعود سوء الطالع . لتعقب خطوات بوليفار : فى « لابورتا La Puerta » وفى « أورتيث Ortiz » وفى « رنكون دى لوس توروس Rincón de los Toros » . وتتوالى عليه الهزائم . وفى ليلة من الليالى بعد الهزيمة الأخيرة نرى رجلا بلا رفيق وبلا جواد يتلمس لنفسه مهرباً مختفياً بين أدغال الغابات . وهناك يقضى ليلته حتى إذا أطل عليه نور الفجر إذا به وقد

اجتمع حوله عدد من الفرسان وهبوا أنفسهم لحمايته ، ثم ها هو ذا يسير على رأس هذه الفرقة الصغيرة ماضياً فى طريقه ... هذا الرجل هو بوليفار الذى انكسر جيشه وتفرق عنه رجاله ، وفقد الحكم والسلطة ، ولكنه يواصل المسيرة ... إلى أين ؟ ما دام بوليفار على قيد الحياة فلا بد أن مسيرته لتأليف جيش جديد وإقرار سلطة جديدة .. وهكذا كان : لقد استطاع البطل بالفعل أن يفعل هذا ، ذلك ، وها هو ذا فى كرسى الحكم منتخباً من قبل الجمعية الوطنية لممثل الشعب كله ، أما الجيش فقد أعاد تكوينه ، بل هو الآن جيش نظامى أقوى وأحكم تنظيما من جميع الجيوش السابقة التى حاربت تحت قيادته .

إنه هذه هى اللحظة التى بدا فيها كيف استطاعت إرادة بوليفار الصلبة التى لا تلين أن تفرض نفسها وجودها ، فتحول تردد المتخاذلين المتشككين إلى تأييد خالص . ومن جديد تتوهج فى نفس بوليفار إشراقة العبقرية الملهمة ، فتهديه إلى الطريق التى تضمن لثورته النصر ، وهى الكفاح المسلح لاسترداد « غرناطة الجديدة » (كولومبيا) . ولكن هذا يقتضى تسلق جبال الأنديز الشاهقة بعد خوض عدد كبير من البحيرات واجتياز

مجارى أنهار واسعة . وكل ذلك فى فصل شتاء قارس وبجنود شبه عراة . ويضطلع بوليفار بهذه المهمة البطولية التى هى أشبه بملاحم الأساطير .

نحن نعرف على طول التاريخ عمليات عسكرية مشابهة اجتاز فيها بعض القواد العظام سلاسل من الجبال الشاهقة ، وقد يكون من بعض هذه العمليات ما تم بطريقة أمهر وعلى أساس من خطة استراتيجية أكثر إحكاما ، ولكننا لا نعرف لما قام به بوليفار مثيلا فى الجرأة والبطولة الأسطورية . لقد صعد بوليفار على رأس عدد كبير من الرجال يبلغ ألفين وخمسمائة من السفوح الشرقية لسلسلة جبال الأنديز حتى بلغ قممها ، ومن هناك بدأ النزول على المنحدرات الغربية ، وقد تناقص عدد رجاله الى حد كبير . بل كان من بقى معه حياً من أتباعه قد تحولوا الى ما يشبه الأشباح ، ولكنهم كانوا أقوى أصحابه أجساماً وأصلبهم إرادة ، أما الباقون فقد تخلفوا مدفونين فى الجليد الذى يكلل هامات الجبال أو جرفهم تيار الأنهار الصاخبة أو ماتوا مختنقين بسبب قلة الهواء وتخلخله . وبهؤلاء الأشباح الأقوياء الذين بقوا على قيد الحياة كسب بوليفار معركة « بوياكا Boyacá » التى فتحت الطريق الى الهضبة التى تتوسط

كولومبيا ، وفى طريق العودة ينتصر بوليفار بهؤلاء الرجال أنفسهم فى «كارابوبو Carabobo » التى تتحكم فى الطريق الى الشرق حيث كاراكاس . ومنذ هذه اللحظة تنهار السلطة العسكرية الإسبانية فى أمريكا الجنوبية من مصب نهر «الأورينوكو» حتى مضيق بنما ، ولنا أن نقدر قيمة هذه الانتصارات اذا ذكرنا أن قوة اسبانيا العسكرية فى هذه المناطق كانت قائمة على صفوة الجيوش الإسبانية نفسها لا على الجنود الذين حشدتهم اسبانيا وجندتهم من بين شعوب مستعمراتها كما كان الأمر فى سائر بقاع أمريكا الجنوبية ..

وتنتهى تلك الحرب بكل ما فيها من تصاريف الأقدار من تذبذب بين النصر والهزيمة. ويرى بوليفار نفسه وقد أتم مهمته فى شمال قارة أمريكا الجنوبية . ويقوده الانتصار الكبير الى أن يتجه بنظره الى الجنوب حيث يلتقى جيشه المظفر حامل لواء الحرية بجيش آخر للتحرير صاعد من جبال الأنديز الأرجنتينية . بعد أن سجل انتصاره بدوره على قوى الاستعمار فى «تشاكابوكو Chacabuco» وفى «مايبو Maipo » . لقد استكملت كولومبيا العظمى حدودها بعد أن تمكنت من تحرير أكوادور بجبالها البركانية ، وأصبح هذا الشطر الكبير من أمريكا الجنوبية حراً الى الأبد .

ولكن بوليفار لا يكفيه تحرير هذا الجزء المائل من القارة ، فهو لا يعتبر كولومبيا وحدها وطنه . بل وطنه هو أمريكا كلها . وهناك فى جنوب القارة بطل آخر تختلج نفسه بنفس الآمال : هو سان مارتين San Martin ،

ولكن المجد المعقود لتحرير القارة لا يمكن قسمته بين اثنين ، فإلى من تدفع راية الاستقلال من الرجلين : إلى بوليفار أم إلى سان مارتين ؟ الحقيقة هى أنه لا مجال للمفاضلة بين البطلين ، بل إن مثل هذه المفاضلة لم تخطر لهما على بال ، فقد كان يكفيهما إحساس بوليفار بأنه هو القائد الحقيقى ، واعتراف سان مارتين بتلك الحقيقة وتسليمه بها فى تواضع نبيل . وهكذا يكون على بوليفار نفسه أن يتوج حرب التحرير فى الجنوب كما توجها فى الشمال . ويواصل مسيرته حتى يدخل ليما عاصمة بيرو ثم يستكمل انتصاره بدخول كوثكو Cuzco وتشوكيساكا Chuquisaca وبوتوسى Potosi كما دخل من قبل بوجوتا وكاراكاس وكيتو ، ويصبح بوليفار هو محرر أمريكا بغير نزاع . وبينما يستعد الجيش الإسبانى الأخير للمعركة النهائية وقد حشد لها كل ما استطاع من رجال وعتاد يستعد هو لهذا اللقاء ، ولكن المرض يصيبه ويهد من قواه ، وعلى الرغم من ذلك فإنهم يسألونه وهو لا يزال بعد واهن الجسد : « ما الذى تفكر الآن فى عمله ؟ » ، فيجيب فى بساطة متناهية تكاد تصل إلى حد السذاجة : « الانتصار ! » ...

وينتصر ... ينتصر بعد أن تطأ قدماه جبال الأنديز على ارتفاع لا يكاد يبلغه إلا العقاب الأمريكى الذى يعرف باسم «القندر» ، ويعيد ملحمته الماضية فى «بوياكا» على أيدى رجاله وتلاميذه من أمثال «سوكرى Sucre بطل موقعة «أياكوتشو Ayacucho ، حيث سلم أربعة عشر قائداً إسبانياً برتبة «جنرال» سيوفهم دلالة على الاستسلام ، وبهذا أعلنوا تخلى بلادهم عن تلك التركة الأمريكية الهائلة التى قدمها كريستوفر كولمبوس بين يدى الملكين الإسبانيين فرناندو وإيزابيل منذ ثلاثمائة سنة .

هكذا يتم بوليفار أداء رسالته ، ولكن البطولة الحقة لاتعرف حدوداً تقف عندها. فهو لايزال يحلم بالكثير : يحلم بالوصول إلى ضفاف نهر «البلاتا» حيث بقى شعب لم ينل حريته بعد على الرغم من انتصار «أياكوتشو» ، وبوليفار يريد أن يكون كذلك هو محرر ذلك الشعب ، وهو يحلم أيضاً بسحق الجيوش الامبراطورية التى لاتزال مسيطرة على البرازيل وإعلان الجمهورية فى تلك الأرض التى ظلت تحت نير نظام ملكى. إن أمريكا بأسرها هى ميدان آمال بوليفار ، وهو لذلك يفكر فى الصعود على طول مجرى نهر الأمازون الهائل

كما فعل الإسكندر الأكبر وهو مصعد فى أنهار بلاد الشرق الغامضة ، حتى يستكمل الدائرة ويعود إلى بلاده فنزويلا (أوكولومبيا العظمى) من حيث بدأ . ويحقق بذلك حلمه فى توحيد أمريكا الناطقة بالإسبانية ، وهو حلم تمثل فى « مؤتمر بنما » الذى كان بوليفار هو عقله المفكر وإرادته المحركة . بل إن آمال البطل لاتقف عند ذلك ، فهو يريد أن يذهب على رأس جيشه يجتاز المحيط الهادى ويحرر جزر الفيليبين المستعبدة . وهو يطمع فى تحرير جزر الكاريبى وجزر كناريا س . بل هو يسعى . إلى ما هو أكثر من كل هذا : يسعى إلى حمل نور الحرية إلى أرض أجداده : إلى إسبانيا . فينقل إليها المبادىء الجمهورية التى انتصرت على يديه فى أمريكا . غير أن الظروف التى تحيط بأمريكا وتثقلها بالقيود تجعل كل هذه المشروعات مستحيلة التحقيق . وهكذا يكتفى التاريخ بأن يسند إلى بوليفار ذلك الدور الذى أصبح بطله بغير نزاع : تحرير القارة الأمريكية ؟ ...

الذى ننتهى إليه من تأمل شخصيته بوليفار وحياته هو أن مجموع العناصر التى تتألف منها شخصيته بما فيها من بطولة عارمة خارقة للعادة يجعل من بوليفار طابعاً منفرداً بذاته بحيث لايمكن أن

يخلط بينه وبين شخصيات مختلف أبطال التاريخ . وهذه الأصالة نابعة من نفسية البطل نفسه وكل ما ميزه من صفات وخصائص ، كما أنها نابعة من الاتصال الوثيق بين سلوكه وأعماله والظروف الخاصة للبيئة التى مضت حياته فى إطارها .

س

هنا نلمس وجوه الاختلاف بين بوليفار وذلك البطل الآخر الذى يعتبر مشاطراً له فى مجد تحرير أمريكا الناطقة بالإسبانية ، تعنى الارجنتينى سان مارتين ، والاختلاف بين الرجلين يجعل المسافة بينهما شقة واسعة وبوناً سحيقاً . فالحقيقة هى أن سان مارتين يمكن أن ننتزعه من البيئة التى مضت حياته على مسرحها وننقله إلى بيئة أخرى دون أن تفقد شخصيته شيئاً من معالمها . هو بطل حقاً ، ولكنه من طراز اعتدنا أن نراه فى تاريخ الشعوب على اختلاف الزمان والمكان . هو أشبه بتمثال للبطولة كانت قاعدته هى جبال الأنديز ، ولكن يمكن لنا أن نستبدل هذه القاعدة بقاعدة أخرى فى أى مكان: يمكن أن تكون جبال البيرينيه أو الألب أو روكى دون أن نجد فى ذلك ما يفجأنا أو يبدو غريباً علينا . ولنتصور سان مارتين مثلا قائداً الى جوار الفرنسى الفيكونت دى لاتورين Vicomte de la Turenne (٥) فإننا نلاحظ أنه كان يصلح فعلا

لأن يكون وريثاً له ، ولسيفه المتزن الذى يعرف كيف يحسن التدبير والتقدير . ولما كان يميزه من نبل وصرامة بسيطة غير متكلفة . ولنتخيل سان مارتين إلى جوار جورج واشنطون(٦) محرر الولايات المتحدة . إنه يبدو لنا صالحا لكى يكون أبرز قواده وأعظم تلاميذه . ولنتخيله فى صفوف رجال الثورة الفرنسية وعصر الامبراطورية فلن نجد صعوبة فى أن تجده مالئاً الفراغ الذى تركه القائد لازارهوش Lazare Hoche (٧) مما كان يميزه من نكران الذات وإيثار التضحية ، أو المكان الذى خلا حينما حكم على القائد المتزن الحكيم جان فيكتور مورو Jean-Victor Moreau (٨) بأن يخرج من بلاده منفياً مضطهداً فانضم إلى صفوف أعداء بلاده.

سان مارتين (٩) يمكن أن يعتبر - بصرف النظر عن المهمة الكبيرة التى ناطها به القدر - نموذجاً مجرداً للقائد العسكرى من ذلك الطراز المألوف الذى نجده فى كل الحروب المنظمة . نموذجاً لا يقتضى قدراً كبيراً من الأصالة أو التفرد . وإنما تكفى فيه مجموعة من الصفات والخصائص الممتازة أهمها الذكاء اللماح والإرادة الصلبة القوية . وهى صفات يمكن أن تتوفر فى أفراد كثيرين تنتجهم الأجيال البشرية على اختلاف الزمان والمكان

أما شخصية بوليفار فتختلف عن سان مارتين اختلافاً جذرياً . إذ لا يمكن تصورها إلا كما كانت فى الواقع ، ومن العسير أن نتخيله فى قارة أخرى غير أمريكا الجنوبية أو مكافحاً فى سبيل حرية غير الحرية الأمريكية ، وإلا انحرفنا ببوليفار عن غير طريقه ، وبدت شخصيته لنا ناقصة مشوهة . إن بوليفار الثائر ، القائد ، الخطيب . الزعيم . المشرع . الرئيس ، كل ذلك فى وقت واحد وعلى نهج خاص — مثل خالص للأصالة الفذة التى لا نكاد نراها تتكرر ، ومن مظاهر هذه الأصالة نفسها البيئة التى عاش فى رحابها والوسائل التى كانت بين يديه لكى يحقق بها رسالة حياته .

بوليفار

لم يحارب قط كما كان يحارب القواد العسكريون الأوربيون ، وهو لم يستلهم من أبطال التاريخ قبله شيئاً إلا بعض العناصر المتفرقة المتناثرة فى التجارب الإنسانية السابقة دون أن يضع نصب عينيه تجربة بذاتها يتخذ منها نموذجاً له ، وهو بعد ذلك لم يخلف لنا صورة تشبه أياً من صور الأبطال السابقين . هو نسيج وحده ، ومن أجل ذلك يستولى على مشاعرنا وأحاسيسنا على نحو جبار أخاذ ، وسيظل

إلى الأبد فى أذهاننا ـ نحن الأمريكيين ـ رمزاً للبطولة فى أنقى صفاتها ، ممثلا خالصاً للوحدة الأمريكية الإسبانية .

إن فى عظمته وسموه يمثل شيئاً أكبر بكثير مما نراه فى تلك المقومات التى انفرد بها زعماء هذه الرقعة من الأرض والتى وسمتهم بميسم أصالة شبه متوحشة ، إذ فيه تتجسم كل الخصائص الأصيلة التى طبعت تاريخ بلادنا . بوليفار هو طينة أمريكية تلقت نفحة من العبقرية ملأت نفوس شعبه بعطرها وطعمها الغريب . وأشعلت فيهم جذوة حية من بطولة أصيلة لاتشبه غيرها من البطولات .

إن ثورة أمريكا الجنوبية فى سبيل الاستقلال قد اتخذت لها منذ البدء مركزين كبيرين انطلقت فيهما ثم انتشرت فى سائر أنحاء القارة ، وهذان المركزان هما حوضا نهر الأورينوكو (فنزويلا) ونهر البلاتا (الأرجنتين) ، وكان هناك تشابه كبير بين هذين المركزين الثوريين سواء فى الطابع أو فى الصورة . ففى كليهما نجد خطوة مبادرة بدأتها المدن ، ونعنى بها الثورة الفكرية ، وتلاها تمرد الجماهير فى الحقول والريف ، وهى الثورة المنبثقة من قوى الغريزة الفطرية

أما روح المدن فقد بلغت مرحلة من النضوج كفلها تطور الحياة فيها وتأثير الأفكار الجديدة التى انتقلت إليها من الخارج ؛ وأدى ذلك إلى ظهور فكرة الوطن باعتباره رابطة سياسة ومفهوم الحرية التى يجب أن تزاول فى إطار نظم قانونية مستقرة .

أما وسائل العمل من أجل تحرير أمريكا الإسبانية فكان أهمها المؤتمرات الشعبية ، والدعاية الخطابية ، والتنظيمات العسكرية الشعبية . غير أن الحضارة التى أتى بها الاستعمار الإسبانى لتلك الأراضى الواسعة لم تكن تعين على إيجاد حركة منظمة للمقاومة الواعية المدركة . فعلى طول هذه السهول الممتدة إلى غير نهاية : سهول فنزويلا المعروفة باسم « اليانوس Llanos » من وادى كاراكاس إلى ضفاف نهر الأورينوكو ، وسهول الأرجنتين المعروفة باسم « البامباس Pampas » المنحدرة من سفوح جبال الأنديز والواصلة إلى ضفاف نهرى « البارانا » و « الاورجواى » — نقول إنه على طول هذه الرقعة الهائلة حاول الاستعمار أن يقتحم مجاهل الصحراء وأحشاءها ، ولكنه كان يجد فى اتساع تلك الأرض الرهيب ما يقف دونه عقبة كئوداً . على أن تلك البيئة لم تنتج إلا عدداً

محدوداً من السكان يحيون حياة التنقل والرحلة ، إذ كانوا يشتغلون بالرعى نصف الهمجى ، على صورة شبيهة بحياة البدو من سكان صحراء الجزيرة العربية ، أو العبريين فى ايام ابراهيم أو يعقوب عليهما السلام . وكان هؤلاء أكثر استقراراً على صهوات جيادهم منهم على صفحة الآرض ، يرون فى هذه الفروسية ضماناً لتحكمهم فى تلك الطبيعة الهائلة الرهيبة وسيطرتهم عليها .

وأما سيد هذا المجتمع القبلى غير المتسق ولا المتماسك فقد كان ذلك الفارس الذى يدعونه « البانيرو Llanero » (أى رجل السهول) فى فنزويلا و « الجاوتشو Gaucho » فى الأرجنتين . هذا البطل الذى هو أشبه ما يكون بذلك المخلوق الآسطورى الذى تحدثنا عنه الميثولوجيا الإغريقية واصفة إياه بأن له رأساً وصدراً بشريين ركبا على جسد جواد ، فرجل السهول يعيش على صهوة جواده كأنما نحت هو والحصان من طينة واحدة مشتقه من تراب الأرض الأمريكية ومن مزيج من دماء الهندى الآحمر والفاتح الإسبانى ، ثم أيبسها شمس الصحراء المحرقة وريحها اللافحة . رجل السهول نموذج رائع غريب البطولة البشرية فى فطريتها وتلقائيتها ،

ففيه تتمثل القوة الخارقة القادرة على مواجهة الطبيعة والتغلب عليها ، وهو لذلك شخصية ملحمية الطابع خلابة الألوان ، ومن فحولتها استمد المصير الأمريكى كل ما حفل به تاريخ القارة من بطولات مجيدة رائعة . والواقع هو أن هذا المجتمع القبلى الصحراوى الذى كان يدور حول محور « الفارس رجل السهول » كان بعيداً فى أول الأمر عن كل فكرة قومية بمعنى الكلمة ، وعن الإدراك الواعى للمبادىء المتعلقة بالحقوق السياسية التى كان ينادى بها رجل المدينة ممن نال قسطاً من الثقافة واطلع على تجارب الأمم الأجنبية . غير أن بطل استقلال أورجواى خوسيه أرتيجاس José Artigas (١٠) عرف منذ البدء كيف يربط بين فروسية « الجاوتشو » وفكرة الاستقلال فاستغل قوة فرسان السهول البدائية وجندها فى خدمة قضية التحرير ، هذا بينما قام القائدان الإسبانيان بوفيس Boves (١١) ويانيث Yanez فى الشمال بتجنيد هذه القوة الطاغية فى خدمة الاستعمار الإسبانى . وأخيراً عرف القائد الفنزويلى الكبير الجنرال يانيث كيف يستخدم قوة فرسان السهول من جديد وبصفة نهائية فى نصر قضية الكفاح من أجل تحرير أمريكا .

وذلك لأن الإحساس الحى المتوثب بالتوق إلى الحرية ، وهو الذى كان المحرك الأعظم لتلك القوة المتفجرة لخوض الحرب كان فى ظل هذه البيئة مجرد إحساس بالحرية المطلقة دون أن ترتبط بأى مفهوم سياسى ولا حتى وطنى .. الحرية

بمعناها البدائى الهمجى ... الحرية الفردية التى لا تعترف بشريعة إلا شريعة الفطرة والطبيعة . والتى لا يشبعها إلا الانطلاق الكامل على عرض الفضاء الفسيح متخطية كل سياج من القانون والعرف الاجتماعى ... تلك هى حرية العشيرة أو القبيلة البدوية ، وهى التى رأيناها فى أشد أوقات التاريخ حرجاً وأكثر أزماته حدة تخرج كالإعصار فتدمر الحضارات المتداعية التى نخر فيها الفساد ، لتقيم مكانها عالماً آخر جديداً تسطع فيه ومضات من السذاجة والفحولة فى آن واحد .

إذا كانت هناك سلطة يمكن أن تتمشى مع هذه الغريزة الحرة إلى أبعد حد فإنها لا يمكن أن تكون إلا سلطة الفرد القادرة على توجيه هذا التيار العارم دون محاولة لصده أو الوقوف دونه . وهذه السلطة الفردية لا يظفر بها فى مثل هذا المجتمع إلا من توطدت له أعلى مكانة إما لكونه الأقوى أو الأشجع أو الأقدر . ومن هنا نشأت فكرة « الزعامة » وسيادة «الزعيم» على الجماهير النزاعة إلى التمرد والتحلل من كل قيد ولا سيما فى الريف والبوادى . والزعيم هنا أشبه شىء بشيخ القبيلة البدوية او الزعيم الجرمانى البدائى الذى

كان يلتف حوله أفراد قبيلته من المحاربين الذين لا تجمع بينهم رابطة إلا صلة الولاء البنوى لشخصيته القوية القاهرة .

وأما في أمريكا اللاتينية فإن سلطة هؤلاء الزعماء القبليين في ذلك الضرب من الديمقراطية المتبربرة قد تحولت إلى رافد ينصب في تيار الثورة التي كانت موشكة على الاندلاع . وشيئا فشيئاً أصبح لدى الناس وعى بهذه الحركة وبدأت تتجه اتجاهاً شعبياً مضاداً للاتجاه الأرستقراطي الذى كان في طريقه إلى التأصل في المدن ، أما في المعارك التي كانت أمريكا مقبلة على خوضها في سبيل التحرر ، فإن هذه النزعة الشعبية قد طبعتها بطابع ملحمى بطولى فضلا عما غلب عليه من أمريكية خالصة تميزها عن مثيلاتها في التاريخ . وهكذا بدأنا نرى هذه الحركة في مواجهة الجيش النظامى أحياناً ومتحالفة معه أحياناً أخرى ، وأصبحنا نراها تستخدم أساليب عسكرية استراتيجية لاتقوم على علم بفنون الحرب ، وإنما على الإلهام الغريزى الذى كثيراً ما يكون أقدر على الحركة من التخطيط العلمى المنظم ، هى الحرب الشعبية التي تقوم على الضربات السريعة الخاطفة ، تضطلع بها تلك الكتائب التي عرفت في أمريكا باسم « المونتونيراس Montoneras » ، وأساليب هذه

المجموعات الفدائية تستعيض عن التخطيط و النظام العسكريين بالبسالة الطاغية ، الحركة السريعة و الاندفاع المتهور ، هو شيء يقوم قبل كل شيء على الفروسية ... على المهارة فى السيطرة على الحصان الوحشى الجامح الذى لم يكد يستأنس بعد . حتى إن الفارس والجواد يتحولان إلى كتلة واحدة . إلى مخلوق واحد يذكرنا بذلك الخرافى الذى عرفته الميثولوجيا الإغريقية باسم « القنطور » . الفروسية التى لا غنى فيها عن الرمح الذى يعرف الفارس كيف يسدده وينقض به كالصاعقة متحولا بفضله إلى السيد المطلق للسهول الفسيحة المترامية .

وقد عرف بوليفار كيف يخضع لسيطرته وسلطته تلك القوة الجبارة حتى أصبحت عنصراً مستكملا للقوة الأصيلة التى كانت تشعها آراؤه ومبادئه . هذا وإن كان بوليفار فى الأصل رجلا مثقفاً تربى فى المدينة وهذبته أساليب الحضارة وعرف استراتيجية الحرب النظامية . لقد استطاع بوليفار أن يجمع بين هذين النقيضين : ففيه التأمت القوة الفطرية الغريزية التى ميزت الثورة الأمريكية والتخطيط المنظم المنبثق عن علم وتشبع بالثقافة . والغريب أن مثل هذا الرجل المدنى

المتحضر استطاع أن يتمثل البيئة البدوية ويتأقلم معها بل أن يتمكن من قيادة رجالها الشديد مراسهم العسير قيادهم . وهكذا سرعان ما نرى بايث Paez زعيم فرسان السهول بعد أول لقاء له مع بوليفار يعترف بزعامته ويعلن تبعيته له . وكان بوليفار قد استعاد هيبته ومكانته التى كانت قد تحطمت بعد هزيمته فى حملة «اوس كابوس» المشئومة . ومنذ تلك اللحظة قبضت يدا بوليفار على زمامى الثورة الأمريكية : فى المدينة المثقفة المتحضرة وفى السهول والمراعى البدوية شبه المتوحشة . ونحن نرى ثمرة ذلك فى حملته الحافلة بالأحداث خلال سنتى ١٨١٧ و١٨١٨ . إذ نرى كيف اجتمعت فيها انطلاقة الزعيم البدوى الشجاع المحارب بفطرته . ومواهب العسكرى الناضج الذى يعرف كيف يرسم الخطط ويدير المعارك .

فى سهول وادى «الأبورى» Apure الشاسعة الموحشة يعيش بوليفار مع أولئك الجنود ذوى البطولة العبقرية البدائية . ومن هؤلاء سيتألف الجيش الذى سوف يقتحم وراءه قمم الأنديز الشاهقة . ومنهم ستكون الطلائع التى ستحقق أروع انتصار فى معركة «كرابوبو» . كان على بوليفار أن يفرض قيادته وسلطته فى

هذه البيئة التى لاتدين إلا بالرجولة المطلقة . وقد استطاع بالفعل أن يستأثر بألباب أولئك الرجال هناك حينما رأوا كيف يعتبر نفسه واحدا منهم لايختص دونهم بأى مزية . فإذا جد الجد رأوه يمارس ما يمارسونه هم من أعمال ورياضيات ، بل يفوقهم فيها ، فهو فارس يجيد كل فنون الفروسية ، وهو يعرف كيف يروض أشد الجياد وحشية وجموحاً ، وكيف يثبت على صهوة الجواد المنطلق فى المرج الفسيح كالإعصار وراء الظبى الناقر . إن بوليفار الأديب الكاتب الخطيب «ألكبيادس »(١٢) عصره ، الدبلوماسى المحنك ، الذى قضى صباه فى كاراكاس فى ظل حياة مرفهة ناعمة ؛ ـ كان يعرف إذا اقتضى الأمر كيف يصبح «فارس السهول » فى فنزويلا أو «الجاوتشو » فى مراعى الأرجنتين .

مثل هذا الاحتكاك المباشر القوى بين بوليفار والبيئة الأمريكية الخالصة بما فيهامن فتوة بدائية لا تراه أبداً فى حياة زعيم آخر مثل سان مارتين الأرجنتينى ، فقد فارق سان مارتين بلده وهو صغير ، ولم يعد إليه إلا بعد أن ناهز سن النضوج ، ولم يكن يربطه ببيئته الأولى خلال ذلك الزمن الطويل إلا صورة بعيدة باهتة ... صورة تكفى حقيقة لكى تؤجج نار الحب

للوطن والإخلاص لقضيته . لكنها لاتكفى لكى يتمثل الرجل بيئته الأولى ويصبح جزءاً منها عميق الإحساس بها . ولقد عرف سان مارتين كيف يضطلع بمهمة تنظيم حركة التحرير فى جنوب القارة وقيادة جيوشها ورسم الخطط الاستراتيجية لها دون حاجة إلى التشبع بالروح الشعبية الأصيلة التى كانت فى انطلاقها العارم واختلاجاتها الفوضوية لاتتفق مع روح الجندية التى تخضع لنظام عسكرى صارم . صحيح أنه كان تعاون وثيق بالفعل بين جيوش سان مارتين النظامية وكتائب حرب العصابات التى كان يقودها « جويمس » (١٣) والتى كانت مؤلفة من فرسان السهول «الجاوتشوس» ، لكنه كان شيئاً عارضاً لم يغير من جوهر الأمر ولم يضيق الشقة بين بوليفار وسان مارتين . ففى جنوب القارة (الأرجنتين) كان لثورة التحرير مجالان منفصلان أحدهما للقائد العسكرى فكان من طراز سان مارتين وبلجرانو (١٤) وروندو (١٥) وأما الزعيم الشعبى فهو ما تمثله لنا شخصيات أرتيجاس أوجويمس أولوبث . الأول هو الذى يعرف كيف يحرك الجيوش النظامية ويضعها فى خدمة السلطة المدنية ، والثانى هو الذى يثير الجماهير ويؤلف بينها حول شخصيته القوية ومكانته الوطيدة فى نفس الشعب الثائر .

أما بوليفار فهو النموذج الفريد الذى امتزج فيه الطرازان ... بوليفار هو أرتيجاس وسان مارتين معاً . بل

يتعين علينا أن نضيف إلى هذين كثيراً من ملامح الفيلسوف الكاتب مورينو (١٦) حتى نستقصى جانباً آخر من جوانب شخصية بوليفار الخطيب والمفكر الثورى . فى هذا الرجل تجسدت قوى الثورة الأمريكية كلها ، وعرفت مواهبه الفذة كيف تغطى كل ألوان نشاطها منذ أن فتح طريقها وفجر طاقاتها فى مبدأ الأمر وهى تخطو أولى خطواتها . فقد استهل عمله الثورى متآمراً على السلطات الاستعمارية داعية من أجل التحرير ، ثم واصل هذا العمل وهو مبعوث دبلوماسى يدعو لقضية الاستقلال ، فلما أعلنت الثورة تركزت فى شخصيته الزعامة السياسية ، وكان لخطبه وكتابته فعل السحر فى نفوس الجماهير ، ثم كان هو الذى قاد جيوش الثورة بعبقرية القائد العسكرى الملهم ، حتى إذا استقر الأمر وأصبح الاستقلال حقيقة واقعة كان هو مشرع الثورة وواضع دستورها ، ولم يلبث أن أصبح أول حاكم سياسى لها .

ربما كان من العسير أن يتصور أحد كيف يستطيع شخص واحد القيام بكل هذه الأعباء، ولكن بوليفار كان أمة وحده، فقد كانت مواهبة الطبيعية وكفاءاته متنوعة بشكل مذهل . فالعبقرية فى أكثر الأحيان وحدة غاية فى البساطة وهى

أحيانا أخرى اتساق رائع منغم بين عناصر مختلفة كثيرة التعقيد والتشابك .

ما أكثر ما نجد هذه الطاقة الغامضة التى نسميها العبقرية تركزت وانحصرت فى موهبة واحدة من مواهب الروح أو مجال بعينه من مجالات النشاط البشرى مثل الملاحظة أو الخيال أو التفكير العلمى المرتب أو السلوك الخلقى أو الارادة العسكرية الصلبة ، وحينئذ نرى العبقرية ذات النطاق المحدود لاتكاد تخرج عنه والتى تتكرر لمحاتها على نحو منتظم رتيب . فإذا كان صاحب هذه الموهبة ممن خلقوا للحرب فإننا نراه رجلا لايعرف غيرها ، حتى أنه اذا قضى كل حياته فيها لم يكل ولم يتعب ، كما يمكن أن نرى فى شخصية ملك السويد كارل الثانى عشر مثلا(١٧) ، واذا كان قد ولد للفن فإننا نجده يعيش للفن والجمال لايكاد ينظر الى شىء آخر فى الحياة الا نظرة من لايعنيه أمره ، ومن أمثلة ذلك الكاتب الفرنسى «فلوبير» (١٨) ، واذا كان مصيره التفكير الفلسفى فإننا نجده مثل «كانت»(١٩) ليس له حياة إلا فى مجتمع الأفكار المجردة.

وهناك موهبة القيادة التى تتضخم وتنمو على حساب

المواهب الأخرى . فإذا بها تصبح أشبه بنسر هائل يعلو طيرانه ويرتفع مشرفاً على فضاء النفس البشرية متحكما فيها متسلطاً على كل ما يكمن فيها. ولكن ما أكثر ما نرى هذه الموهبة بدلاً من أن تقتل غيرها من المواهب وتنفرد بنفسها . قد شحذت هذه المواهب نفسها وأشعلت ما بينها جذوة التنافس. فإذا بها جميعاً تعمل فى اتساق ونظام فى خدمة الموهبة الكبرى: موهبة القيادة . وهكذا تصبح كما لو كانت أسراباً من النسور الصغرى تحيط بالنسر الأكبر فى طيرانه المهيب وتحف به من كل جانب .

إلى هذا التصوير الذى شبهنا به موهبة القيادة تنتمى العبقريات المتنوعة المتشعبة المجتمعة فى نفس إنسانية واحدة. منها عبقرية سيمون بوليفار . فكل ما كانت تمليه روحه العظيمة من أعمال . وكل مظاهر التفوق التى كانت تلوح على تصرفاته ماجل منها ومادق ، كل ما كان يصدر عنه لم يكن من قبيل الصدفة أو الاتفاق ، وإنما كان له هدف مقصود . وجزءاً من رسالة عليا . حياة سيمون بوليفار كلها كانت رهينة بهذا الهدف . وبتلك الرسالة . وهما شىء يمكن أن تعبر عنه كلمة واحدة : تحرير أمريكا اللاتينية . ومن أجل تحقيق

هذا الهدف اجتمعت وتضامنت كل مواهب بوليفار واتسقت فى وحدة مترابطة . لقد كانت وسيلة بوليفار للوصول إلى إنجاز رسالته الكبرى هى استخدام العمل العسكرى . وهنا تجلت عبقرية بوليفار الأولى . ولكن عبقرياته المتعددة الأخرى أتت لتكون روافد تغذيها وتنتظم فى خدمتها : الإلهام الذى كان يكمن تحت فكره السياسى الثاقب . وقوة الإقناع التى كانت تتميز بها مقدرته الخطابية . وإشراق أسلوبه الأدبى .

وأما الفكر السياسى فلنا أن نؤكد أنه لم يكن لدى أى سياسى من معاصرى بولفيار خلال ما يمكن أن نسميه « ثورة أمريكا » من كان لديه من نفاذ البصيرة وأصالة التفكير السياسى وقدرته الخلاقة . هذا وإن كنا نسلم بأنه ربما كان من بين بعض معاصريه من كانوا يفوقونه فى فن الحكم بما يتفق مع واقع ظروف الحياة فى ذلك الوقت ، فقد كان بوليفار يفضل إلهامه وإحساسه الباطن أكثر إدراكاً للمستقبل منه للحاضر القريب ، ويمكن أن نرى ذلك فى وضوح إذا عدنا لمطالبة ذلك الخطاب العجيب الذى وجهه من جامايكا فى سنة ١٨١٥ حينما كان مصير تلك الثورة الأمريكية التى بدأها هو غامضاً تكتنفه الظلمات والشكوك . فى هذه الرسالة الحافلة بومضات

من النبوءة الصادقة نجد بوليفار يتنبأ بمصير كل واحد من شعوب أمريكا الناطقة بالإسبانية بعد أن تظفر بحريتها واستقلالها . فهو يعرف ما ستتمتع به شيلى مثلا من الحياة المستقرة الهادئة المنتظمة . وهو يقدر كذلك ماسوف تتعرض له الأرجنتين من وقوع تحت وطأة نظام دكتاتورى غاشم هو الذى رأيناه بعد ذلك فى ظل حكومة «روساس»(٢٠)

لو أننا تأملنا مشروع التنظيم السياسى الذى تقدم به بوليفار لمؤتمر أنجوستورا سنة ١٨١٩ ضاربين صفحاً عما فيه من مثالية لاتلتزم بواقع أحوال القارة الأمريكية فى ذلك الوقت ، فإننا نرى فيه نقداً جريئاً ينفذ إلى الصميم لكل النظم السياسية التى حكمتها التجارب حتى الوقت الذى قدم فيه هذا المشروع . وفضلا على ذلك فإنه لم يكتف بهذا الجانب النقدى الذى يمكن أن يعتبر سلبياً إلى حد ما ولكن فيه عناصر كثيرة إيجابية بناءة فيما يتعلق بالمفاهيم الدستورية مع مراعاة الظروف الخاصة لبناء الأمة الأمريكية وبيئتها التى كان ذلك المشروع موجها إليها . وقد دخلت هذه العناصر فيما بعد وطبقت بشكل عملى فى أول دستور لجمهورية بوليفيا ــ التى قدر لها أن تحمل اسم بطل التحرير ــ ثم فى دستور بيرو . والواقع أن هذا الدستور

يعكس صورة لتفكير بوليفار العبقرى ، وفيه يلتئم طموح الزعيم المصلح بأصالة المفكر المشرع ونزعته إلى التجديد . ومن أهم ما يلفت النظر فيه من الناحية الدستورية فكرة « السلطة الانتخابية » التى تقوم على أن ينتخب جمهور الناخبين من بينهم عدد تصل نسبته إلى العشرة فى المائة . وتكون هذه القلة المختارة من مجموع الناخبين سلطة انتخاب موظفى أجهزة الدولة . وهكذا تصبح السلطة التنفيذية خاضعة لسلطة الشعب على نحو مباشر .

إلى جانب هذا فعلينا أن ننوه بتلك الفكرة العبقرية التى كان بوليفار هو متبنيها ومحركها الأول ، وهى التى كان ينتهى إليها تفكيره السياسى كله ، ونعنى بها ما كان يطمح إليه من توحيد الشعوب الأمريكية الناطقة بالإسبانية جميعاً فى اطار دولة اتحادية تمتد من خليج المكسيك الى مضيق ماجلان .

على أن أكبر فضل تكلل به مجد بوليفار بغير شك وتمثلت فيه بطولته الفائقة انما هو تمكنه من تحقيق استقلال أمريكا اللاتينية وتحريرها . وهى رسالة إذا كان بوليفار قد نجح فى أدائها فإنما كان ذلك بفضل إحساسه العميق الجياش بأخوة

الشعوب الناطقة بالإسبانية وإيمانه الوطيد الثابت بإمكان تحقيق أمله الكبير فى تحويل هذه الوحدة المثالية إلى وحدة سياسية حقيقية . ولم تكن فكرة الوحدة هذه منفصلة عن فكرة الاستقلال ، بل كانتا مرحلتين متعاقبتين من تفكير واحد ، فبوليفار لم يحلم أبداً باستقلال منحصر فى حدود فنزويلا وحدها ولا حتى فى حدود الشعوب الثلاثة التى كان يتألف منها ما عرف باسم «كولومبيا الكبرى» (أى فنزويلا ، وكولومبيا ، وبوليفيا الآن) ، وإنما كان يرى أن الثورة الأمريكية التى أوقد هو جذوتها ينبغى أن تكون أراضى القارة كلها مسرحاً لها دون تجزئة ولا تفريق . كان بوليفار يؤمن بأن الأخوة التى سادت شعوب أمريكا الإسبانية أثناء حرب التحرير لا يمكن أن تنتهى إلى الانعزال الذى قد تحكم به الحدود الدولية المتعارف عليها .

كانت أمريكا المستقلة تعنى بالنسبة لبوليفار منذ اللحظة الأولى لا مجموعة من الدول المختلفة وإنما اتحاداً بين عدد من الشعوب ينتمون إلى أمة واحدة ... اتحاداً لا يكتفى فيه بمجرد الصلات الودية أو التحالف الرهين بتحقيق فكرة التحرير والاستقلال ، بل اندماجاً حقيقياً إيجابياً محدد المعالم يتطلب

تنظيما سياسياً نابعاً من وعى سياسى مدرك لمقومات الوحدة التى تسمو على الأوضاع الخاصة لكل من هذه المناطق التى كانت تتألف منها الولايات الأمريكية الخاضعة للتاج الإسبانى قبل الاستقلال .

وقد كافح بوليفار فى سبيل تحقيق هذه الوحدة ، وتبلورت فكرته حولها فى مؤتمر بنما ، والحقيقة هى أن اختيار بوليفار لبنما لكى ينعقد فيها ذلك المؤتمر اختيار له مغزاه ، فى بنما يوشك نصفا القارة الأمريكية على اللقاء والعناق ، ويتقارب المحيطان اللذان يحفان بالقارة : الأطلسى والهادى . ومن هنا رأى بوليفار فى هذا الموقع الجغرافى أصلح مكان لعقد المؤتمر الاتحادى الذى كان عليه أن يمهد لتأليف تلك الدولة الواحدة : أمل بوليفار الأكبر . ولعل الزعيم العبقرى كان يحس بأن مضيق بنما ربما كان ممثلا فى أمريكا لما كان يمثله مضيق كورينثو بالنسبة لأرخبيل اليونان ، ففى هذا المضيق ولدت وحدة بلاد الإغريق فى العصور القديمة تحت راية أثينا . ولم يكد بوليفار يستولى على مقاليد الحكم الذى اضطلع به باسم آمريكا بعد دخوله كاراكاس فى أعقاب حملة سنة ١٨١٣ ـ حتى رأينا فكرة وحدة القارة الأمريكية الناطقة بالإسبانية ماثلة دائماً فى تفكيره السياسى وفى مشروعاته المستقبلة ، بل كانت هى

الهدف الأسمى لكل ما قام به من أعمال منذ تلك اللحظة التى رأيناه فيها بعد انتصاره الكبير محوراً لهذا العالم الأمريكى والمتحكم الأعلى فى أقداره .

لكن حلم بوليفار لم يلبث أن اصطدم بالحقائق المريرة : فإن طريق الوحدة كان مفروشاً بألف عقبة ، وعوامل الفرقة كانت أشد وأقوى من عوامل الائتلاف فى تلك الامبراطورية الإسبانية التى كانت قد تمزقت أو صالها بحكم الاستقلال . ولسنا هنا فى معرض تعديد تلك العقبات ، فهى أكثر من أن تحصى . وهى تتراوح بين المسافات الجغرافية الهائلة ، والتضاريس الطبيعية المتباينة وبين عوامل التنافس والتحاسد التى دبت بين شعوب القارة الجديدة ناشرة بينها كثيراً من التخوف وسوء الظن ، وهى عوامل لم تكن ترجع إلى تعارض المصالح بين تلك الشعوب بقدر ماكانت ترجع إلى مطامع الزعماء والقادة وحرص كل منهم على سلطته الشخصية . وهكذا عادت فكرة بوليفار عن الوحدة الأمريكية شيئاً أشبه بالأحلام المثالية والمشروعات السابقة لأوانها ، وها نحن أولاء الآن بعد أن مر قرن كامل على بوليفار نرى تلك الوحدة ما زالت مشروعاً لم يأخذ بعد سبيله إلى التحقيق . بل حتى تلك

الوحدة الجزئية بين بلاد « كولومبيا الكبرى » التى حققها بوليفار لم تلبث أن تمزقت ولم تتح لها أسباب البقاء ؟ ..

وبعد

فما قيمة هذا عند النظر إلى شخصية بوليفار وتقويمها ؟ إن ذلك الفشل الذى لم يكن لبوليفار حيلة فيه لا يغير من جوهر الأمور شيئاً . فتفكيره العبقرى وغيرته على خير القارة الأمريكية هما هما لا ينال منهما شىء ، بل إن الأجيال المستقبلة سوف تكون أكثر إجلالا لتفكير بوليفار العبقرى من الأجيال الحاضرة .. صحيح أنه من الناحية الشكلية لا تبدو لنا مشاريع بوليفار الآن إلا ذكرى تاريخية مضى بها الزمن ، ولكن الفضل الدائم والمجد الخالد للفكرة نفسها يكمنان تحت هذه القشرة الظاهرية المؤقتة . وحينما تصل أمريكا إلى الوحدة ستعرف كيف تعود إلى تقدير أول مبشر بها حق قدره . ونضرب على ذلك مثلا بأولئك الزعماء الذين بشروا بالوحدة الإيطالية : مازينى (٢١) ودازيليو (٢٢) وجوبرتى ، فنحن حين نشيد بعمل هؤلاء الأبطال وكفاحهم فى سبيل ذلك المبدأ لا يهمنا كثيراً أن نقف عند الأشكال التى اقترحوها للوحدة وإنما يكفينا أن نتأمل حماستهم وإخلاصهم لجوهر قضيتهم وفى سبيل بلوغ هدفهم الأسمى .

ومع ذلك فإن الوحدة بين بلاد أمريكا الناطقة بالإسبانية سوف تتحقق مهما تطاول الزمن ، وبصورة أو بأخرى وحينما يأتى هذا اليوم فإننا سنرى كيف تبعث من جديد تلك الفكرة التى كان بوليفار أول مناد بها ، وسنرى انتصار بوليفار النهائى . وسيكون اسمه هو أجدر اسم بأن يرتبط به تحقيق تلك الرسالة التى كرس لها حياته .

لم يكن نظام «الرياسة مدى الحياة» الذى كان ينادى به بوليفار قادراً على حل مشكلات أمريكا الموشكة على نيل استقلالها ، وأهمها مشكلة الاتحاد بين مختلف شعوبها ومشكلة تنظيمها الداخلى. فقد كان النظام الذى اقترحه بوليفار شيئاً شبيهاً بالجمهورية ولكنه لم يكن جمهورياً خالصاً . وعلينا أن نشير هنا إلى أن «بوليفار» لم يقبل النظام الجمهورى على علاته ولا فى كل تفاصيله إذ كان يعترض على أحد مبادئه الجوهرية . وهو المبدأ القاضى بتجديد منصب رئيس الجمهورية على نحو منتظم . ومع ذلك فإن من أعظم ما يذكر بالفضل لبوليفار هو الدفاع عن روح النظام الجمهورى إزاء نظام الملكية المتوارثة. وهو نظام كان هناك كثير من كبار رجال الرأى والفكر

مؤيدين له ، بل إنه كان المثل الأعلى السائد فى جنوب القارة، وبه نادى جيش التحرير المنتصر فى بوينوس أيرس تحت قيادة البطل سان مرتين .

والحقيقة هى أن الفكرة الجمهورية الكاملة بكل ما فيها من نقاء وتجرد لم يكن لها فى أمريكا الثورية منذ أن رفعت راية الثورة فى القارة الا نصير واحد أخلص لها كل الإخلاص ودافع عنها بحد السلاح . هذا النصير الوحيد هو أرتيجاس . ولكن هذه الحقيقة ما زالت الى حد ما مجهولة فى العالم الأمريكى باستثناء أورجواى الذى لا يزال حتى الآن شديد الحرص على التقليد الجمهورى معتزاً بمبادىء الجمهورية أعظم الاعتزاز . والسبب فى ذلك هو أن كثيرا من بواطن تاريخ تلك الثورة التى اشتعلت على ضفاف نهر البلاتا لم تتكشف بعد ، اذ لم يعتن المؤرخون والباحثون بتعمقها وترويج الحقائق حولها . وقد تنبهت أنا الى ذلك منذ زمن قليل وأنا أقرأ بحثا يمتاز بنفاذ النظرة ودقة المنهج كانت قد تضمنته مجموعة محاضرات ألقاها فى مدريد مؤخراً الأستاذ روفينو بلانكو فومبونا (٢٣) حول أصول أمريكا المعاصرة . فعلى الرغم من دقة هذا البحث وقيمة الآراء الواردة فيه فإن صاحبه يؤكد أن ثورة الطرف

الجنوبى للقارة الأمريكية ولدت وترعرعت فى أحضان الفكرة الملكية . ولا يخلو هذا الرأى من الصحة فيما يتعلق بسائر أنحاء جنوب القارة الا إذا أدخلنا فى حسابنا موقف أرتيجاس وآراءه . صحيح أن ثورة الجنوب الأمريكى كانت على الإجمال ثورة ملكية الروح . ولكن علينا أن نستثنى من ذلك تلك الحركة التى اضطلع بها أرتيجاس والتى كانت تقوم على المبادىء الديمقراطية الحقة وتدعو الى التحرير الاجتماعى لجماهير الفلاحين الواقعة تحت نير أشد ضروب الاضطهاد والتنكيل من جانب الأقليات الرجعية الملكية ، كأنها وحش طريد . غير أن أرتيجاس لم يجد من الكتاب الأمريكيين بعد ذلك من ينصفه ويقدره حق قدره . فقد كان كثير من أولئك الكتاب الذين تعرضوا لبحث أصول الثورة الأمريكية ممن ورثوا عن تلك الأقليات الرجعية الملكية بغضها الشديد له ولرسالته الجمهورية الديمقراطية . ولهذا فإنه يتعين على مؤرخي اليوم أن يعاودوا النظر فى أحكامهم السابقة ، وأن يعودوا الى تقويم هذا الكفاح الذى اضطلع به أبطال الثورة التحريرية . وحينما يتم ذلك فإننا سنرى كيف ستعود بعض الشخصيات المتوسطة العادية الى أن توضع فى مكانها الصحيح بعد أن تنحسر عنها تلك الهالات الزائفة التى أحيطت بها ، وكيف ستتخذ مكانها فى الطليعة شخصيات أخرى جار عليها الكتاب والمؤرخون ، مثل شخصية أرتيجاس ،

ذلك البطل الذى كان أول مناد حقيقى خالص بالنظام الجمهورى ، وكانت فكرته هذه هى التى حمل بوليفار لواءها بعد ذلك ، وإن كانت قد فقدت بعض مقوماتها الأصيلة الجوهرية ؛ فى مواجهة البرنامج الملكى الذى كان ينادى به سان مارتين .

وإذا تحدثنا عن شخصية بوليفار باعتباره رجل سياسة فإنه لا مفر من أن نتحدث عن مسألة طموحه الشخصى . والحقيقة هى أن ذلك الطموح مظهر رئيسى لا يمكن أن نفصله عن جماع شخصيته. وأنا أعتقد أن من قصر النظر أن يصور بوليفار على أنه رجل تجرد من الطموح أو من الشهوة الى القيادة والزعامة ، كما لو كانت تلك الشهوة أمراً يشين شخصية البطل أو يترتب عليه الإساءة اليه . ويهمنا أن ننبه فى هذا المقام الى أن ذلك النوع من « الكمال السلبى » من الناحية الخلقية لا يمكن أن نتخذه معياراً تقاس بها بعض العبقريات ذات الإرادة الخلاقة ، تماماً كما أن ذلك النوع من الكمال من الناحية الجمالية لا يمكن أن يعتد به ازاء بعض أعمال الإبداع الفنى الخالدة مثل « الكوميديا الإلهية » لدانتى أو تماثيل النحات العبقرى ميكيل آنجلو .

فالطبيعة لاتصب فى قوالبها شخصيات مثل تلك التى يمكن أن تتصورها بعض العقول تصوراً تجريديا ، بأن تحذف منها بعض الجوانب أو تضيف أخرى . حتى تحصل بعد ذلك على طرز خالصة توافق المبادئ الأخلاقية التى يدين بها هذا المفكر أو ذاك لا، الأمر أبعد ما يكون عن ذلك . بل أن الشخصيات البشرية انما هى جماع متفاعل من عناصر مختلفة متفرقة من الخير و الشر أو بتعبير أصح مما يبدو بعد ذلك خيراً أو شراً فى نظر المعايير النسبية المتقلبة التى اصطلحت على وضعها الجماعات . وليس من اليسير اخضاع هذه العناصر لما يشبه التحليل الكيميائى العلمى بحيث نضع الخير أو ما نحسب أنه الخير فى جانب ، والشر أو ما يتراءى لنا شراً فى جانب آخر . ولو أننا حاولنا ذلك لمزقنا شخصية الإنسان وأصبحنا أكثر جهلا بها من حيث أردنا أن نستبطن أغوارها وأعماقها .

لقد كان بوليفار بطلا بغير شك ، ولكن بطولته من النوع الذى لا يمكن أن نفصل عنه عنصر الطموح . وليس معنى ذلك أننا ننال من بطولته أو نقلل من شأنها ، بل اننا نضعها فى إطارها الإنسانى الصحيح ، واذا زعم أحد أن البطولة أو العبقرية

لا يمكن أن توجد الا مع التجرد الخالص المطلق من كل مطمح أو رغبة فإننا نرى تقريره هذا أشبه بمن يعتبر من الممكن أن يجتمع فى مخلوق واحد رأس كرأس النسر وجسد كجسد الأسد ، كما تزعم الأساطير الميثولوجية أن مثل هذه المخلوقات قد وجدت فى زمان غابر ، وهو أمر لا سبيل الى تصديقه وانما نعده اليوم من أحاديث الخرافات.

عبقرية

بوليفار من ذلك النوع المرتبط بإيمان ثابت عميق بالرسالة التى كان يشعر بأنها منوطة به ، وهى عبقرية كانت تقتضى نوعاً خالصاً من التجرد ونكران الذات ... نوعاً ليس مجرد احتقار الأنانية والزهد فى اللذات الحسية ، وهذا فى الحقيقة أبسط أنواع التجرد وأسهلها بالنسبة للنفوس العظيمة ، وانما هو الحرص مع ذلك على اتمام الرسالة والمضى فى الشرط الى نهايته. ولنتصور الآن سيمون بوليفار بعد ذلك اللقاء التاريخى الذى تم بينه وبين سان مارتين فى جواياكيل (٢٤) وهو يترك الميدان لزميله ومنافسه فى الكفاح من أجل الحرية والاستقلال ، أو لنتصوره بعد أن أكمل عمله العسكرى وهو يعتزل السياسة ويدع مصير أمريكا الجديد لمن يريد تصريف مقاليده ... ان مثل هذا الاعتزال لو حدث

لكان تناقضاً لا يتفق مع شخصية بوليفار ومقومات نفسيته مهما قيل فيه من أنه « زهد » و « تجرد » . لو أن ذلك وقع لكان لغزاً من ألغاز الطبيعة البشرية يستعصى على الحل والاستكناه .

أما بالنسبة لسان‌مارتين فإننا لا نستغرب منه مثل هذا الاعتزال والعزوف عن البقاء فى الميدان . اذ أن ذلك يتفق تماماً مع المقومات الخلقية لطبيعة هذا النوع من الأبطال ممن يشعرون فى أعماق نفوسهم شعوراً واعياً بأن لهم رسالة محدودة ينبغى ألا يتجاوزوها . فإذا حققوها وأتموها على الوجه الأكمل تركوا الميدان لغيرهم وكان اعتزالهم الحكم أمراً تلقائياً لا غرابة فيه .

وهكذا كان ... وقرر لقاء جواياكيل (سنة ١٨٢٢) مصير هذين البطلين رجلى الاستقلال الأمريكى : أما بوليفار فقد تزايد توهج مجده وارتفع نجمه . وأما سان مارتين فقد ترك الميدان بإرادته واختياره مؤثراً حياة الزهد واعتزال الكفاح بعد أن شعر بأن دوره قد انتهى الى ذلك الحد ، دون أن يعنى ذلك انتقاصاً من عظمته وعبقريته . لقد كان سان

مارتين نبيلا كبير النفس فى اعتزاله وتجرده من كل سمات الأنانية والأثرة . ولكن لهذا الاعتزال تفسيراً آخر ربما كان يرجع الى شيء خفى عميق مستقر فى وعيه الباطن . وهذا الشيء هو الذى جعله يحس فى لقائه ببوليفار بأن الميدان لم يعد ميدانه وأن بوليفار هو الآجدر بحمل الراية حتى النهاية . هذا الشيء الخفى هو الذى تنبه اليه الفيلسوف الإسبانى « جراثيان » (٢٥) فى فقرة له كتبها فى الفصل الرابع عشر من فصول كتابه « البطل » حيث يقول :

« كل وحوش الغابة تعترف للأسد بتفوقه وغلبته دون أن تتمرس به أو تجرب حظها معه ، وإنما هو إحساس غريزى أكمنته فى نفوسها الطبيعة ، وهذا هو الشأن مع ذلك النوع من الأبطال الذين خلقهم الله سادة بطبيعتهم ، فلا يكاد الناس يطالعونهم حتى تملأ الهيبة نفوسهم ويشعروا نحوهم باحترام تلقائى دون أن يحتاج الأمر إلى أن يضعوهم على محك التجربة » .

فاذا

تركنا ميدان النشاط العسكرى إلى ميدان السياسة والحكم فربما بدا لنا طموح سيمون بوليفار أمراً يترك مجالاً للنقد أو المناقشة ، ومع ذلك فإنه قبل أن نتعرض للكلام عن

هذا الطموح ينبغى علينا أن نسمو بأنفسنا إلى مستوى عال يسمح بأن نتمكن من تتبع سلوك البطل ، وحينئذ سنرى أن طموحه فوق مستوى الأنانيات المبتذلة ، وإنما هو نابع كذلك من إحساسه العميق بأن العناية الإلهية أوالقدر وكلا إليه رسالة تاريخية كان عليه أن يؤديها حتى يصل بها إلى الهدف الكبير ، وهذا الإحساس أو الإلهام هو الذى كان يغذى فى نفسه ما يمكن أن يبدو لمتأمل شخصيته لأول وهلة من قبيل الطموح الشخصى والتعبد بالنفس . ومع ذلك فإن كلامنا هذا لا يعنى القول بأنه ينبغى أن يكون معنى من تبعة كل ما صدر عنه من تصرفات إزاء حكم معاصريه أو إزاء حكم التاريخ عليه فى مستقبل الزمان . وكل ما أردنا التنبيه عليه هو أن نضع ذلك « الطموح الشخصى » الذى لا ننكره على سيمون بوليفار فى اطاره الصحيح ، وباعتباره جزء لا يتجزأ من وحدة شخصيته المتكاملة ، شخصية البطل العبقرى ، فإنه من الظلم أن نفصل هذا الطموح عن بقية مقومات شخصيته لكى نقدمه باعتباره وجهاً من وجوه النقص أو الرذيلة ، واذا صح أن ذلك الطموح يمكن أن يعتبر ضرباً من ضروب الأنانيات فى شخصيات أخرى فإنه بالنسبة لبوليفار عنصر من العناصر التى تكتمل بها بطولته وعبقريته.

أما موقف الجماهير من البطل فإنه كثيراً ما يتميز بالعداء ، فهى فى بعض الأحيان تستجمع قواها وتتحفز للانقضاض عليه تحدوها فى ذلك غريزة لاتقل فى ثقتها فى نفسها عن

ثقة البطل العبقرى نفسه ، وتعمل بالفعل فى قطع الطريق عليه . كذلك كثيراً ما يثير البطل خصومة طوائف مختلفة من الرجال منهم من يعتبرون فى عداد المفكرين ، ومنهم نفر من أصحاب الإرادة القوية ، وقد يكون هؤلاء اذ يعترضون طريق البطل ويناوئونه بالعداوة محقين ، وقد يكونون مخطئين ، وما أكثر ما يكون لهم فى عداوتهم له عذر وجيه ، ولكن المؤرخ النزيه المتأمل فى سلوك الرجال وأفعالهم ثم فى ردود الأفعال الصادرة عنهم مما تتألف منه خيوط المسرحية البشرية التى نؤديها جميعاً فى الحياة ؛ لن يلبث أن يرى فى إرادة البطل بكل مايحيط بها من تأييد المؤيدين ومعارضة المعارضين تلك العوامل التى تصنع الاتساق والتناسق فى التاريخ الإنسانى ، وسيرى المؤرخ العادل أنه لن يخطىء أبداً فى الخلط بين قوة إرادة البطل البناءة الخلاقة والطموح القلق المسعور الذى يتسم به سلوك الأبطال الزائفين ، ممن يسيرون وراء مظاهر بطولتهم الجعجاعة الكاذبة أنانيات شخصية ومآرب رخيصة ، وكأنهم ثعالب تنكرت فى جلود السباع ؟

إذا كانت مقدرة بوليفار وبراعته فى ميدان السياسة من أهم الصفات التى تضاف الى سجل أمجاده فإن موهبته بصفته أديباً لا تقل

عن مؤاهبه السياسية . والحقيقة هى أن اسم بوليفار فى هذا الميدان من ميادين أمجاده قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بخطبه السياسية المتأججة ونبرات بلاغته القوية الفخمة ، وتلك النبرات التى نعتقد أن الأرض الأمريكية كلها لم تعرف مثيلا لها على طول تاريخها فى قوة العارضة والقدرة على الإثارة . ومع ذلك فإننا – وإن كنا لانكتم اعجابنا بخطابة بوليفار الرائعة – نضم صوتنا الى أصوات الكثيرين الذين يفضلون على بوليفار الخطيب بوليفار الكاتب ولا سيما فى رسائله التى يجرى فى كتابها على سجيته فى انطلاق وتلقائية . وذلك أن خطب بوليفار مثل سائر نتاج فن الخطابة فى كل زمان ومكان يقوم على وسائل تعبيرية وألوان من التأكيد والتكرار تتلاءم مع المقام والمناسبة بغير شك ، ولكنها تهدف الى بلوغ التأثير المطلوب فى نفوس السامعين ، وهو تأثير فى نظرنا مؤقت عابر رهين بلحظته ، اذ أن هدف بوليفار من تلك الخطب الحماسية الملتهبة لم يكن يعدو اثارة مشاعر الجماهير وهزها هزاً عنيفاً ، فإذا مضى الزمن بتلك الخطب لم تلبث أن تذبل ويذهب شذاها ويشحب لونها ، بعكس الكلمة المكتوبة التى يقدر لها حظ أكبر من الخلود

ومن ناحية أخرى فإن هذه الخطب لا تخلو – وما كان لها أن تخلو – من تلك الخيوط الباهتة الهشة التى اعتدنا أن

نرى الخطب السياسية منسوجة منها . ونعنى بها النماذج المحفوظة المتواترة من التعابير والمفردات . ولغة الخطابة السياسية فى نظرنا هى أقل ألوان النثر حظاً من الجمال الأدبى بوجه عام . وما أكثر ما نجد فيها من الطنطنة البلاغية والبعد عن الدقة والوضوح واستخدام قوالب تعبيرية تقليدية كأنما صبت لكى نخف دائماً الى نجدة الخطيب كلما ألحت عليه مضايق منصة الخطابة . وليس معنى ذلك أننا نخلى خطب بوليفار من قيمتها . فما أكثر ما نجد فيها من ومضات العبقرية ولمحات الفحولة والأصالة . ومن صور وعبارات وكلمات ضمن لها الخلود ما احتوته من مضامين نبيلة سامية تبرز فوق تلك البلاغية التى تبدو تقليداً لخطابة الإغريق القدماء وان كانت قد تكيفت فى ظل الظروف الجديدة ، فاتخذت لغتها من كتب المفكرين السياسيين المدافعين عن الحريات مثل « ارينال » (٢٦) و « مارمونتيل » (٢٧) و « مابلى». (٢٨) وأصبحت نماذجها المفضلة هى الخطب الحماسية المتأججة التى كانت تستخدم أدوات دعاية خلال الثورة الفرنسية فى سنة ١٧٨٩ ولاسيما بين طائفتى « الجيرونديين » و « الجبليين» (٢٩) وقد انتقل ذلك الى ثورة أمريكا اللاتينية فيما انتقل من تأثيرات أوربية الى هذه القارة فى بداية عهدها بالكفاح الاستقلالى.

هذه العناصر الخطابية كانت كلها من طين هش ، صحيح أنها تحولت بين يدى بوليفار الى تحف فنية رائعة اذ نفخ

فيها من فيض عبقريته ، ولكنها كانت طيناً على كل حال ، أما الرسائل التى كتبها فإنها بطبيعتها كانت عملا أدبياً تلقائياً أودعه بوليفار خلاصة روحه واحساسه على نحو ماكان ليتوفر فى الخطب السياسية العابرة ... خطب المناسبات . هذا وان لم يعن ذلك خلوها من البلاغة والتصوير الشائق والألوان المتوهجة ، رسائل بوليفار قطع فنية خالدة من الأدب الحى الجميل سواء منها الرسائل الخاصة التى يكشف فيها عن طوايا نفسه أو الرسائل السياسية التى لا تخلو من الرنة الخطابية أو الغنائية ، فى جميعها يقدم لنا بوليفار عصارة تفكيره وتجاربه وحساسيته فى فرحه وحزنه ، فى آماله وآلامه .

وكثيرا ما نرى فيها كيف يعرض الفكرة عرضا تمثيلياً تعين فيه الصورة على تعميق الفكرة واجلائها ، ولنتأمل على سبيل المثال هذه الفقرة التى كتبها فى احدى رسائله سنة ١٨٢٦ :

« كنا فى نقطة من التوازن العارض الذى يبدو ضرباً من ضروب المعجزات ، كأننا موجتا بحر اندفعت كل منهما إزاء الأخرى فى عنف عارم ، ثم التقتا واصطدمتا ، فأوقفتهما

الصدمة وبقيتا لحظة هادئتين تستند كل منهما الى الآخرى فى هدوء وسكون يبدوان حقيقين. وان كان هذا الهدوء لا يستمر الا ثانية أو جزءاً من ثانية وما أكثر ما رأى خائضو البحار مثل هذه الظاهرة » .

ونرى فى بعض هذه الرسائل صوراً للرجولة الحقة التى تعرف كيف تعبر عن نفسها فى أصالة واعتداد وثقة، كما نشاهد فى هذه الرسالة التى كتبها يرفض فكرة تنصيبه ملكا على ما اقترحه عليه أحد كبار قواده « الجنرال بايث » :

« لست نابوليون ، ولا أود أن أكونه ، ولست أريد أن أقلد يوليوس قيصر. وأولى بى ألا أسعى الى تقليد «أيتوربيدى»(٣٠) ولست أكتمك أننى أعتبر هذه الأمثلة أقل مما يستحقه اسمى من مجد. لقد منحنى الشعب لقب «بطل التحرير» ، وهو لقب أسمى وأعز من كل ما يمكن أن يبلغه طموح انسان . وليس فى نيتى أبداً أن ألطخ هذا الشرف أو أحط من قيمته » .

ولبوليفار عبارات تأخذ بمجامع النفس بحكم نفاذ نظرتها مع الإيجاز المحكم :

« الذى يريد أن يلتزم الحق فى الحكم على الثورات وعلى الرجال المصطلعين بها فإن عليه أن يراقبها من قريب . ثم يحكم عليها من بعيد » .

– « اذا لم يتوفر الاستقرار لأى مبدأ سياسى فإنه لابد أن ينتهى الى الفساد ولا يلبث أن ينهار من أساسه » .

– « الذى تأصلت فيه روح العبودية لا يمكن أن يقدر الحرية الصحيحة حق قدرها . فهو يتملكه الهياج والرغبة فى التخريب اذا وقعت الفتنة ، فإذا فرض عليه الذل فى ظل الإرهاب فإنه يخضع ويستكين » .

وهذا هو ما يحملنا على أن نشعر بأسف لا ينتهى إذ نرى أنه لم يبق لنا من رسائل سيمون بوليفار الا جزء ضئيل ، فهى كنز ثمين يحز فى نفوسنا أنه لم يصل الينا كاملا . غير أن ما بقى من تلك الرسائل يكفى لكى يقدم لنا شاهداً على موهبة الكاتب العظيم التى تكمن فى نفسه ، هذا فضلا عما تطلعنا عليه من مختلف جوانب شخصيته العبقرية . ففيها تنعكس القصيدة الشعرية الرائعة التى تتألف منها قصة حياته . وما أجمل هذه

القصيدة التى تتحول فيها حياة رجل حافلة بالعمل والكفاح الى شعر خالص ؟ ..

لم يعش أحد من البشر أبداً مثل هذه الحياة العريضة الممتلئة، الحياة التى تسمو مثلها على كل ما عرفته البشرية من متعة الآبيقوريين وزهد الرواقيين. حياة عرفت آلهة الخيال كيف تشع فيها نور عينيها لتضيء ظلمات تلك الغابة القاتمة التى تشتمل عليها كل نفس إنسانية. حياة هى أشبه بالمعجزات والأساطير ، فى ذلك العالم الذى بدأت فيه واقعية الحياة وحقائقها المادية تفرض نفسها منذ فجر القرن التاسع عشر. حياة بدأت وهى فى شبابها الغض بحب تحطم وانهار وهو لم يكد يبدأ ، فقد انتزع الموت منه زوجته الشابة بعد عام واحد من الزواج ، وحينئذ يكرس بوليفار حياته لحب آخر تملك عليه وجدانه : هو حبه لوطنه ، وهو يقبل على هذه الرسالة الجديدة بكل ما احتوته نفسه من عاطفة متأججة وانفعال عارم . ويبدأ ذلك التحول النفسى الهائل الذى يبدو كما لو كان مكاشفة من مكاشفات الأنبياء ، فيملى عليه هدف حياته الجديدة : خلق وطن جديد وانقاذ عالم بأسره ! ..

وبعد ذلك تأتى خمس عشرة سنة من مغامرة هائلة أسطورية لاتتخلد نفسه فيها إلى راحة ، ثم لذة الانتصار الذى يدركه مائة مرة . ومرارة الهزيمة التى تتكرر مائة مرة ،والتجوال المثير الذى لاينقطع فى طبيعة هائلة تتعاقب فيها أنهار كالبحار وجبال كالسحب وسهول تحرق لفحات الحر فيها الجلود بشواظ من نار . وقمم مغطاة بالجليد تنفذ رياحها ببرودة الثلج إلى داخل العروق .وأخيراً ا الحلم الطائر السارح يتجسد فى حقيقة ماثلة من المجد ، وجولات بوليفار فى المدن التى يهب أهلها للهتاف له واستقباله بطلا منتصراً ، وليالى «ليما» الساحرة حيث ينحسر هواؤها الفاتر الشاحب عن انطلاقة ملحمة عسكرية جديدة . ثم تلك الوقفة التاريخية التى يستحيل على مؤرخ أن يصفها حق وصفها ، وبوليفار مطلع من قمة جبل «البوتوسى» على هدوء السهول الساكنة حيث دارت المعركة الآخيرة .

وبعد ... فهل بقى شىء ؟

نعم . بقيت مرارة الرجاء الخائب والآمال المنهارة ، وهو يرى كيف تصب آلهة الحسد عليه إنتقامها الرهيب والإنكار الظالم لكل ماقدمت يداه من فضل ، وتنمر بعض أتباعه ورجاله عليه ، وإن كانت كل هذه الصدمات تولد فى نفوس عظماء الرجال قوة جديدة ومزيداً من الاعتداد بالنفس . كان كل هذا هو وتر الأصوات الناشزة التى ماكان لها أن تختفى من

حياة رجل عظيم كانت كلها سيمفونية كاملة من الألحان المتسقة الجميلة .

لقد قدم لنا عصر بوليفار العجيب الحافل بالمفارقات هذه الروح التى عاشت أيامها فى حيوات كثيرة متعددة ، والتى نفخت فى رجال تلك الأيام نفحات من البطولة الخلاقة ، وأصبحت أشبه ما تكون بملحمة شعرية من ملاحم الإغريق القدماء .

حياة بوليفار كانت تفجيراً لمعين من الطاقة و القوة تولدت عنه فى ميدان العمل و الكفاح معجزات تذكرنا بشخصية نابوليون التى تحول بها فى نظر الناس من رجل إلى شبه إله ، ومن جندى إلى إمبراطور ، أما فى ميدان الأفكار و الصور فلقد قربت بين بوليفار وبين عباقرة الفلاسفة و الشعراء . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن التاريخ البشرى لم يعرف شخصية تجمعت فيها كل هذه المواهب و العبقريات منذ عصر النهضة الأوربية كما عرفها فى بوليفار . وما أوثق أصول بوليفار بتلك النهضة التى كانت تعنى بالنسبة لنا نحن الأمريكيين فتح بلادنا ، واستعمارها . فبوليفار نفسه إنما ينحدر من أسرة إسبانية كانت

تعيش فى منطقة بلاد «الباسك» على جبال البيرينيه . وما أعجب تقلب التاريخ : فقد كان بوليفار من سلالة هؤلاء الرجال الذين عرفوا بفحولتهم وقوة عزمهم كيف يفتحون عالماً جديداً ظل تحت نير حكمهم قروناً طويلة من الخمول والنوم ، ولكنه بعد ذلك لم يلبث أن استيقظ وتفتحت فيه تلك الطاقات الخامدة نهمة الى المغامرة ، وكانت هذه اليقظة بفضل رجال مثل بوليفار كانت أصولهم من ذرية أولئك الفاتحين المستعمرين أنفسهم . لقد فتح أجداد بوليفار تلك القارة الأمريكية .. ثم أتى هو ليحررها من ربقة الخضوع لأولئك الأجداد ! ...

فى نهاية سنة ١٨٢٦ كان بوليفار فى أوج مجده وعظمته ، فقد أصبح هو الحكم المتصرف فى مصير عالم حديث العهد بالميلاد ، وكان فى طريقه الى العودة الى كولومبيا حتى يضطلع فيها بمقاليد الحكومة المدنية التى كان الفضل فى خلقها يرجع اليه . ولكن الثمل بالمجد والنصر لم يلبث فجأة أن تحول الى ثمل «بمرارة العلقم» التى تتحدث عنها دعوات النبى أرميا فى الكتاب المقدس . ومنذ تلك اللحظة حتى وفاة بوليفار اذا بحياته تتحول الى سلسلة من الآلام . وما أكثر ما مر عليه من لحظات عصبية كانت الأمور فيها تتعقد عليه حتى تبدو

كأنها جواد جموح يريد أن يقذف براكبه عن صهوته ، ولكنه كان يعرف كيف يسلس قيادها فى النهاية فتصبح فى يديه كالعجينة الطيعة ، بل إنه كان يعرف كيف يستمد من تلك الأزمات إرادة جديدة وعزما من صلب الحديد ، ولكن الأمر فى هذه المرة كان مختلفاً : لقد أشرفت ملحمة بوليفار على نهايتها ، والجواد الجموح من تحته أصبح لا يتعرف على صوت سيده . لقد كان كل من حوله وما حوله من قبل أشبه بنبرات موسيقية تحسن يداه تصريفها وتحويلها الى تحفة رائعة من الألحان ، ولكنها الآن أوتار ممزقة لا تند منها الا أصوات جشاء خشنة فإذا تآلف منها لحن الاتهام ونكران الجميل ... قدر غريب وقضاء ما كان لعباقرة الرجال منه راد ولا دافع ؟

أرض

أمريكا هذه التى صنعت من عجينة من النار والحديد انصهرت فى بوتقة الفاتحين الإسبان كانت تحت قشرة العبودية والذل الظاهرة تنطوى على معين من الإرادة البطولية ومن فضائل الشعوب المحاربة ذات المراس القوى والشكيمة القاهرة ، فضائل أعانت على تأصيلها وبلورتها تلك الغيبوبة الطويلة التى أخلد اليها الشعب الأمريكى خلال قرون من التبعية تحت نير الاستعمار ،

تماماً كما تتعتق الخمور فى ظلام الأقباء وهدوئها ، فلما برز من أبناء الشعب الأمريكى من عهد اليه القدر بإيقاظ هذه النفوس المخلدة لنومها الطويل كأنه ساحر أتى بتعويذة تفك السحر ، اذا بنا نرى الانتفاضة الهائلة ، والطاقات الكامنة تتفجر عارمة مبشرة بالمعجزات . ولكن ذلك كان رهيناً بوجود البطل العبقرى الذى انتصب لكى يصبح محوراً لتلك الأعمال البطولية . وهكذا ارتبطت به والتفت حوله تلك الطاقات أينما سار ، صادعة بأمره ، ومطيعة اياه طاعة الأبناء للآباء . ولكن انشاء الأمم وبناءها لا يقتصر على تحريرها من نير التبعية والاستعمار ، واذا كان هذا التحرير يقتضى الكثير من أعمال البطولة والفداء فإن ذلك ليس الا المرحلة الأولى فقط ، وقد تمت هذه المرحلة بفضل بوليفار وبقى بعد ذلك اتمام رسالة أجل وأكبر . لقد عاد بوليفار والنصر يتوج كفاحه ، وكان عليه وعلى رجاله بعد ذلك أن يتمثلوا مكاسب الانتصار ويحسنوا تنظيمها ويتعهدوا بالرعاية والحكمة السياسية والوعى الهادىء تلك البذرة الغالية التى عرفوا من قبل كيف يصلون الى ايجادها بفضل البسالة العسكرية والتضحية فى ميدان المعارك . غير أن هذه المهمة الكبيرة اصطدمت منذ البدء بعقبات أكبر لم يكن هناك فى طبيعة الشعب الموروثة ولا فى مستواه من العلم والثقافة ، ولا فى عاداته وتقاليده ولا فى البيئة الجغرافية الطبيعية التى يتحرك

على ميدانها ، ولا فى أوضاعه الاقتصادية الا العراقيل والمعوقات ! ...

ما أقسى هذه الرسالة التى كان على بوليفار إتمامها : خلق أمم حرة حيث كانت العبودية قد استقرت فى النفوس خلال قرون طويلة حتى إنها أصبحت الخيوط التى يتألف منها نسيج تلك النفوس ، وانشاء شعب متجانس على رقعة هائلة الاتساع تفصل ما بين أجزائها الآهلة من الصحارى المقفرة أكثر مما تفصل البحار المترامية بين القارات . والتبشير بالتقدم والحضارة حيث تجثم البربرية المتوحشة والبدائية الخشنة . وتوليد طاقات جديدة تعرف أصول الحكم فى بلاد لم تعرف بعد من الثقافة والعلم الا قشرة هشة واهية . والاهتداء الى وسيلة لنظام سياسى مستقر يكفل العمل الهادئ دون لجوء الى فرض حكم استبدادى صارم ... كل ذلك كان شيئاً فوق طاقة بوليفار .

وهكذا تبرز على ميدان حقائق تلك الأزمة العنيفة : أزمة الصراع بين الغاية النبيلة والوسيلة المتواضعة . الهدف السامى والإمكانيات المحدودة وتتجدد الأزمة فى كل

خطوة يخطوها بوليفار ، وتفرض الحقائق الواقعة سيفها المصلت الرهيب الذى لم ينج من بطشه هذا الرجل نفسه ... بطل التحرير... الذى كانت الأقدار قد أعدته لكى يكون بطلا أكثر مما أعدته لكى يكون أستاذاً ومربياً للجمهوريات الجديدة . ولقد كان بوليفار حقاً رجل إلهام تقوده غريزته الى الضربة الموفقة فى الوقت الملائم أكثر مما كان رجل سياسة وحكم مبنى على التقدير الهادئ الحذر والمثابرة الصابرة .

وكان كل تلك العقبات والعراقيل لم تكن كافية ، إذ أضيفت اليها أخرى كانت تظهر على خط السير الطويل كلما دعت اليها مناسبة: قذارات النفوس والمطامع الأنانية التى تكون مستترة خلال حروب التحرير ، فإذا انقضت الثورات ظهرت على السطح وكشفت وجهها القبيح ، والطاقات المتوحشة التى لا تلبث أن تتطلع لتسلم قياد الزعامة ، والهذيان المحموم الذى يتقدم به أصحابه كما لو كان فلسفة سياسية وأفكاراً بناءة ، والأهواء الشخصية التى تهرع مطالبة بثمن ما قدمته خلال الثورة من ضروب الشجاعة والاستبسال كما يطالب المرابون بفائدة ما دفعوه من قروض . ثم وقاحة الغوغاء

وسوء ظنهم واعتقادهم أن كل من يود اقامة حكومة منظمة فإنما هو طامع فى الحكم لشخصه أو راغب فى الاستبداد بمزايا السلطة .

لا يكاد بوليفار يتسلم مقاليد الحكم حتى يرى نفسه منذ اللحظات الأولى وقد أحاط به سوء الظن والانحراف ، بل تأتى بعد ذلك الدسائس والمؤامرات ، وتضطرب فى نفسه ازاء هذه العداوة التى يقابل بها قبل الآوان وبدون مبرر انفعالات غامضة تجعله هو الآخر يسىء الظن بنفسه ، وتملى عليه هذه العبارة المليئة بالرجولة التى نطق بها فى رسالة الى مجلس الشعب طالباً إعفاءه من السلطة ، وكأنه يدلى باعتراف خطير رهيب : «انى لا أبرىء نفسى من مظنة الطموح والرغبة فى الحكم» .

ولم يمض على ذلك سنتان حتى نجد أن الحكم الذى أقام بوليفار دعائمه لم يعد سلطة تحتكم الى القانون أو ارادة الشعوب ، بل تحول الى دكتاتوريات مستبدة ، وأن النظام السياسى الذى قام بناؤه مرتبطاً باسمه المحوط بهالة النصر قد تفكك فى بيرو وبوليفار وانفصمت عراه . فقد اعتبرت

المطامع والأهواء الشخصية من قبيل الذل والاستكانة أن تظل خاضعة لأفكار بطل التحرير وسلطته ، وكأنها رأت أن استقلالها الذى ظفرت به بفضل بوليفار نفسه لا يتم الا بالتمرد عليه ، ولا نلبث أن نرى الحرب تشتعل بين كولومبيا وبيرو . لقد كان بوليفار يحلم بتأليف جامعة متحدة من البلاد التى حررتها عبقريته ؛ ولكنه يرى والألم يعصر نفسه أن هذه البلاد وهى لم يكتمل بناؤها بعد قد انساقت فى حروب بين بعضها والبعض ، وكأنها ابنا النبى إسحاق اللذان تذكر الكتب المقدسة أن النزاع والقتال دب ما بينهما وهما بعد فى بطن أمهما (٣١) .

وفى هذه الأثناء اشتدت حدة الخلافات الأهلية فى داخل كولومبيا ووصل الأمر إلى حد التآمر المسلح على بوليفار نفسه . ففى ليلة الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٢٨ قامت عصابة مسلحة من المتآمرين بمهاجمة بيت بوليفار . ووجه هؤلاء أسنة خناجرهم الغادرة إلى صدر بطل التحرير . وإذا كانت المؤامرة الفاشلة قد عجزت عن تمزيق صدر بوليفار فإن مرارة الشعور بالظلم ونكران الجميل كانت عليه أشد من كل جراحة . ومع ذلك فإن أنصاره المخلصين المتحمسين لقيادته يجتمعون

فيقررون تنصيبه ملكاً على الدولة الجديدة ، ويلحون عليه فى قبول العرش ، ولكنه يرفض فى إباء ، إذ أنه يعتبر العرش أقل مما يستحقه مجده وكرامته . ولعل هذا الموقف الأبى النبيل الذى اتخذه بوليفار هو الذى أنقذ النظم الديمقراطية فى أمريكا من البوار والانهيار الكامل . ولم يحل ذلك دون اتهام أعدائه ممن كان الحسد يأتكل فى قلوبهم بأنه كان يسعى إلى جمع السلطة فى يده وفرض نظام دكتاتورى استبدادى على البلاد . وتندلع نار التمرد على الحكومة فى بوبايان Popayan ، ويتولى قيادته هناك لوبث Lopez وأوباندو Obando (٣٢)، ثم فى أنطاكية حيث يتزعمه كوردوبا Córdoba ، ولا يتمكن بوليفار من إخماد هاتين الحركتين إلا بإراقة الدماء ، وكان فى ذلك ما فيه من إثارة المزيد من الأحقاد والخصومات .

ولا تنتهى المصائب عند هذا الحد، فالاتجاه الذى أقامه بوليفار بين البلاد التى حررها لا يلبث أن يتمزق، وتنتهى الحرب بين كولومبيا وبيرو بعقد صلح يكون فيه ختام لتلك الوحدة ، ويقع بعد ذلك ما هو أشد هولا من تلك الحروب الأهلية بين الاخوة ، إذ تنفصل فنزويلا نفسها عن الاتحاد الذى توجته

قبل ذلك بعشر سنوات بمعركة « بوياكا » . وهكذا تنهار أحلام بوليفار ويعصر الألم نفسه . بينما تصك مسمعيه أصوات الجماهير الغاضبة فى المدينة التى رأى فيها النور وهى تطالب بإلغاء الاتحاد وتحث أهل كولومبيا على طرد بوليفار ونفيه من البلاد .

بوليفار فى طريقه إلى الأفول، وحياته السياسية تؤذن بنهاية لا مفر منها ولا راد لها.

وفى يناير سنة ١٨٣٠ تنعقد الجمعية الوطنية من جديد لكى تعيد النظام الدستورى للبلاد . ويعلن بوليفار اعتزاله للحكم وللسياسة . واعتكافه بعيداً عن الأضواء فى بيته الريفى فى ضواحى بوجوتا . ثم يتوجه بعد ذلك إلى ميناء قرطاجنة ، وقد صح عزمه على الابتعاد عن السياسة ابتعاداً لا رجعة فيه . وقد فقد كل شىء . فلم تسلم له بعد كل تلك الكوارث لا صحته ولا ماله . أما الصحة فقد كان يلتهم جسده مرض صدرى لم يكن له منه شفاء ، وانطبع ذلك على جسده فبدا شيخاً مهدماً وهو لم يتجاوز الأربعين إلا بسنوات . وأما المال فإن كل الثروة التى ورثها قد نفدت فلم يبق منها

شيء ، إذ أنه أنفقها على القضية التي وهب نفسه للدفاع عنها . وكانت روحه ممزقة معذبة ، موزعة بين ألمين : ألم مجرد لا هوى فيه ، هو ما يحس به الأب أو الأستاذ وهو يرى عقوق أبنائه أو تنكر تلاميذه له ، وألم ذاتي وهو يرى آماله هشيما تذروه الرياح وكرامته تهان وتلطخ . ولم يكن لبوليفار في غمار كل هذا العذاب عزاء حتى في أمل مستقبل ، ولعل هذا هو أقسى ما كان يتعرض له في أخريات أيامه ، فقد كان يقض مضجعه التشكك في قيمة كل العمل الذي كرس حياته له واليأس من مصير أمريكا . حتى بصيص الأمل في أن يكون اعتزاله للحياة السياسية وإيثاره للانزواء جالباً للوئام والوفاق ... حتى هذا البصيص لم يلبث ان تبدد في الظلمات . وما أكثر ما كانت تتردد في مسامعه أصداء بعيدة لجلبة سلاح وحركة جنود ، ولكن مثل هذه الأصوات لم تكن تؤذن — كالعهد بها من قبل حينما كان هو القائد والزعيم — بمأثرة مجد أو بميلاد ملحمة من ملاحم البطولة ، بل كانت إيذاناً بوصمة جديدة وعار يلطخ جبين القائمين بها ، إذ أنها لم تكن إلا نذيراً بمؤامرة خسيسة بيتت بليل ، أو تمرد عسكري فوضوي . إن الجيش الذي استطاع تحت قيادة بوليفار أن يحرر عالماً كاملا قد تمزق الآن إلى فلول متناحرة تتوزعها مصالح رخيصة دنيئة ويتوثب عليها رجال صغار النفوس ؟...

وتصل إلى سمع بوليفار من بلاد أمريكا اللاتينية المجاورة أخبار عن اضطرابات فوضوية مماثلة تلطخ ملحمة

التحرير الكبرى بمزيد من الدماء والوحل . وكأنما لم تكن هذه الصورة القاتمة الحزينة كافية لتوجيه سهامها المسمومة إلى حطام بوليفار مالئة نفسه بالمرارة والقنوط ، فإذا به يبلغه وهو فى هذه الحال نبأ اغتيال صديق عمره وزميل كفاحه الماريشال « سوكرى » (٣٣) ، ذلك القائد العظيم الذى أحرز تحت إمرته أعظم انتصار فى معركة « أياكوتشو » . وقد سقط « سوكرى » مضرجا بدمائه فى ممر من ممرات جبال الأنديز ، تصيده قاتلوه كما يتصيدون وحشاً أو مجرماً عادياً فى خسة ونذالة ، دون أن يشفع له بمجده العسكرى وهالة الانتصار الهائل الذى توج به ملحمة تحرير أمريكا : إلى هذا الحد بلغ التهريج السياسى الرخيص والتنكر لتلك الصفحة المجيدة التى خطتها يدا بوليفار وأيدى أنصاره المخلصين والتى لم يكتب أجل منها ولا أروع فى تاريخ القارة كلها . وقد حفظ لنا التاريخ خطاباً كتبه بوليفار بهذه المناسبة وهو يشف عن مدى المرارة القاتلة التى ولدتها فى نفسه تلك الجريمة الشنعاء .

هكذا كان الموقف وهكذا كانت حالة بوليفار النفسية حينما يطرق بابه طارق من بوجوتا يبلغه أن حكومة الجنرال موسكيرا (٣٤) قد أطاح بها انقلاب عسكرى . وأن التمرد المنتصر يطالب

بعودة بوليفار لكى يتولى مهام الحكم ، وتثور فى نفس بوليفار مشاعر عديدة ، فمواهبه الطبيعية فى القيادة وإيمانه الذى ما زالت فى نفسه منه بقية تدعوه إلى قبول هذا العرض ، وتولد فى أعماقه قشعريرة إزاء تلك العودة إلى الحياة السياسية ، ولكنه يعرف بعد ذلك أن الذى حدث لم يكن ثورة شعبية تسعى إلى إصلاح ما فسد من الأمور ، وإنما هو تمرد عسكرى من نوع ما كانت تضطرب به أرجاء القارة الأمريكية آنذاك . فلا يتردد فى رفض ذلك العرض والإصرار على زهده فى المناصب وإيثار الاحتفاظ بكرامته وهو منزو فى الظلام على أن ينادى به قائداً وزعيما فى ظل تلك الظروف .

وفى خريف سنة ١٨٣٠ تشتد عليه وطأة المرض ، فينتقل إلى سانتا مارتا . وهى المدينة التى انطلق منها قبل ذلك بثمانى عشرة سنة محرزاً أول انتصاراته . وهناك على شاطئ البحر الذى كان هدير أمواجه واصطخابها يهدهد به . مكث ينتظر ساعة النهاية . فى هدوء وسكينة ... هدوء فيه من الجلال والعظمة ما كان من قبل لحركته الدائبة وجهوده التى لم تعرف الكلال قط . وفى هذه اللحظات لم يكن لديه بعد أن تطهرت نفسه وانسكبت

فيها السكينة إلا كلمات الغفران لأعدائه والصفح عمن قابلوا عمله بالعقوق والنكران ، ونسيان كل ما وجه إليه من إساءات ، والدعاء لشعبه بأن يتحد ويأتلف ، ويحل الحب والوفاق بين أفراده وجماعاته محل البغضاء والخصام .

قليل من الرجال عرفوا مثل هذه الحياة الجميلة حتى فى منغصاتها وآلامها ، وأقل من هؤلاء من عرفوا مثل هذه الميتة النبيلة فى سلامها وإيمانها . وفى عصر يوم ١٧ ديسمبر سنة ١٨٣٠ كان بوليفار محرر قارتنا الأمريكية يلفظ آخر أنفاسه .

وهكذا انتهت قصة بوليفار ... بوليفار الذى وهب أمريكا الإسبانية الأصول أعظم وأكفأ إرادة بطولية عرفتها القارة ، وأبلغ كلمة ثورية تردد صداها فى هذه البقاع ، وأعمق نظرة نفاذة خرقت الغيب عن مصير بلاد القارة ومستقبلها . أما بالنسبة للعالم فقد كان بوليفار هو أكثر ممثلى أمريكا الإسبانية أصالة وأخلدهم أثراً فى مجمع العبقريات الإنسانية الكبرى

وإذا أردنا أن نلتمس قريناً لبوليفار فإن علينا أن ننقب فى صفحات التاريخ الإنسانى عن أولئك القلة المعدودة

التى لا تتجاوز عشرة أو اثنى عشر رجلا ممن يعتبرون حقاً عباقرة الحروب وأبطال المعارك ، وممن كان لسيوفهم أثر سحرى لا ينتهى بنهاية مواقع القتال وإنما تشع أضواؤها باقية بعد ذلك ، إذ يكون فى وسعها التصرف فى مصاير الشعوب أو الأجناس والدفع بها إلى تحولات جذرية نبيلة سامية .

وبعد

فما الذى ينقص شخصية بوليفار حتى تتأكد مكانة اسمه فى وعى العالم كله كما تأكدت فى وعى شعوبنا الأمريكية؟ لا شىء يمكن أن يضيف جديداً إلى ما نعرف عنه أو يؤول وقائع التاريخ وأحداثه تأويلا يختلف عما استقر فى أذهاننا وأصبح من المسلمات . بوليفار قد أصبح الآن مثل معدن البرنز الباقى الخالد ، فهو لا يزيد ولا ينقص ولا يتحول عن طبيعته . وكل ما ينقصنا هو أن ترتفع القاعدة التى تحمل تمثاله . ينقصنا أن نسمو نحن بأنفسنا حتى يمكن لأكتافنا أن تصلح قاعدة لهذا التمثال الذى يستطيع أن يسامى تماثيل أعظم العباقرة الأبطال ، ممن عرفهم العالم أكثر مما عرف بطلنا ، لا لأنهم كانوا أسمى منه ولا أرفع ، وإنما لأن شعوبهم أصلب أكتافاً

وأطول قامة من شعوبنا ، فعرفوا كيف يوفونهم حقوقهم وينشرون مآثرهم. ولكن ساعة نضوج بلادنا وأخذها بنصيب فى مضمار التقدم الحضارى قد دنت . وحينئذ ستأتى الساعة التى يعرف فيها العالم أجمع كيف يعطى بوليفار بما له . وكيف يثبت اسمه المجيد فى سجل عباقرة الإنسانية الخالدين.

وأما بالنسبة لقارتنا الأمريكية فإن بوليفار سيظل دائماً فى ضمائر شعوبنا بطلها الأكبر بلا نزاع. فإن البطولة ليست رهينة بفضائل البطل وصفاته ومواهبه المجردة. وإنما هى مرتبطة بمدى الآثار التى تخلفها فى الجماعات والأمم ، وهنالك لحظات بطولة لها من عمق الأثر الذى تتركه فى حياة الناس ما يجعلها نادرة الحدوث ، تماماً كندرة اللقاءات بين أجرام الفلك ، إذ هى لا تتم إلا مرات معدودات بعد دورات ربما استغرقت أزماناً طويلة متناهية .

وحينما تمضى عشرة قرون . وحينما تنشر من جديد تلك الصفحة المطلوبة من صحف الماضى البعيد من تاريخ بلادنا الأمريكية الممتدة من نهر « اناواك » إلى نهر « البلاتا » ... هناك حيث تكون الطبيعة على علاتها وفطرتها أو حيث تكون

الحضارة قد توطدت أسسها ... حينما تكون عشرات الأجيال قد تعاقبت واختلطت رفات عظامها بتراب الأرض وغبار الغابات التى تكون قد جددت أوراق شجرها ألف مرة ، وبدخان المدن التى تكون قد أعيد إنشاؤها وبناؤها عشرين مرة ... وحينما يكون على هذه الأرض ناس لا ندرى من هم ولعل الرعب يملؤنا الآن لو تخيلنا صورهم الغريبة وتقدمهم المذهل فى مضمار الحضارة بالنسبة لنا ... حينما يأتى ذلك الوقت ستكون ذكرى بوليفار مجيدة حية فى أذهان أولئك الرجال ، وسينظرون إليها كما ننظر نحن الآن إلى قمة جبل « سوراتا » المكللة دائماً بالجليد ، إذ نرى فيها أعظم قمم جبال الآنديز ، سيرى هؤلاء كذلك أن قارتنا الأمريكية لم تنجب اسما أعلى ولا أرفع مكانة ولا أبقى ذكراً من اسم بوليفار ! ! ....

حواش

(١) جبل « التشمبوراثو » (El Chimborazo) هو أعلى قمة فى سلسلة جبال الأنديز الغربية ، وهو يقع الآن فى جمهورية إكوادور ويبلغ ارتفاعه ٦٣١٠ متراً .

(٢) فردريك هنريك اليكساندر المشهور بالبارون دى همبولت Baron de Humboldt (١٧٦٩–١٨٥٩) عالم ألمانى اشتهر بتبحره فى علم الجغرافية وبرحلاته واستكشافاته الكثيرة . ولد فى برلين ودرس فى الجامعات الألمانية وقام برحلات عديدة فى أوربا . وفى سنة ١٧٩٩ اضطلع برحلة طويلة من اسبانيا ليجول خلال قارة أمريكا اللاتينية . وبدأ جولته هناك بفنزويلا ثم كوبا وإكوادور وبيرو ، وتسلق جبل « التشمبوراثو » حتى ٥٧٦٠ متراً ، ثم ختم رحلته بالمكسيك . وضمن نتائج رحلاته واستكشافاته فى أمريكا اللاتينية كتباً قيمة فى وصف الجغرافية الطبيعية لبلاد هذه القارة .

(٣) شلال تكنداما Salto de Tequendama يقع على بعد ٢٠ كيلو متراً إلى جنوب بوجوتا عاصمة جمهورية كولومبيا ، ويبلغ ارتفاعه ٢٦٤٠ متراً فوق مستوى سطح البحر وهو يعتبر من أروع المناظر الطبيعية التى يمكن تصورها .

(٤) خوسيه أنتونيو بايث José Antonio Paez (١٧٩٠ – ١٨٧٣) أول رئيس لجمهورية فنزويلا بعد انشقاق « كولومبيا العظمى » التى أنشأها بطل التحرير سيمون بوليفار وانقسامها إلى فنزويلا وكولومبيا الحالية وإكوادور وبوليفيا وكان قد انضم إلى حركة التحرير التى قادها بوليفار ، وسرعان ما ظفر بلقب « زعيم السهليين » الذى أطلق من قبل على القائد الإسبانى الشجاع بوفيس . وكان هؤلاء يؤلفون أعظم كتائب التحرير بسالة واستماتة فى القتال على فوضويتهم ونزعتهم إلى التمرد على كل سلطة . ولكن بايث عرف كيف يقودهم ويجعل منهم قوة فعالة منظمة من قوى الاستقلال وكان نجمه قد سطع منذ سنة ١٨١٦ حينما حقق سلسلة من الانتصارات على القوات

الاستعمارية الإسبانية ولكنه لم يعترف بالقيادة العليا لبوليفار إلا فى سنة ١٨١٨ ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح من أتباعه المخلصين . وهو الذى انتصر فى معركة « كارابوبو » المشهورة وغيرها من المعارك على الجيوش الإسبانية. وفى نفس السنة التى مات فيها بوليفار (١٨٣٠) تحقق لفنزويلا استقلالها الكامل ولكن الوحدة التى كان يدعو بوليفار لها بين البلاد الأمريكية تحطمت وتموقت ، وانفصلت فنزويلا عن أخواتها ، وحينئذ نودى بايث رئيساً لجمهورية فنزويلا وهو الذى قام بتنظيم السلطة فى البلاد وتمهيد شئونها . ولكن الثورات والحروب الأهلية أدت به إلى المنفى ، ثم عاد ليتولى رياسة الجمهورية للمرة الثالثة سنة ١٨٦١ ، غير أنه اضطر للتخلى عن منصبه إزاء الفوضى السائدة فى البلاد فى سنة ١٨٦٣ ، فتوجه إلى نيويورك ، وقضى بها آخر سنى حياته حتى توفى سنة ١٨٧٣ .

(٥) الفيكونت دى لاتورين Vicomte de la Turenne واسمه الكامل هو انرى دى لا تور دو فيرنى Henri de la Tour d'Auvergne (١٦١١–١٦٧٥) عسكرى فرنسي خدم منذ شبابه المبكر فى هولندا ، واشتهر فى الحرب المعروفة باسم « حرب الثلاثين سنة » ضد إسبانيا ، وهو الذى حرر الألزاس ، ومن أجل ذلك نودى به بطلا منذ عودته إلى فرساى . وهو من الشخصيات العسكرية التى كان يكن لها نابليون إعجاباً كبيراً .

(٦) جورج واشنطون George Washington (١٧٣٢–١٧٩٩) أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية . ولد فى فرجينيا ، وكان هو العقل المدبر لقوات التحرير التى ألحقت الهزيمة بالانجليز فى ترنتون ويوركتاون (سنة ١٧٨١) وبعد تحرير بلاده قام بوضع دستورها السائد حتى اليوم ، وانتخب رئيساً للولايات المتحدة فى سنة ١٧٨٩ وظل فى هذا المنصب حتى سنة ١٧٩٣ ثم اعتزل الحياة السياسية وانصرف للعناية بشئون ضيعته .

(٧) لازار هوش Lazare Hoche (١٧٦٨–١٧٩٧) قائد فرنسى تدرج فى المناصب العسكرية فى ظل الثورة الفرنسية، وكان يعتبر من أعظم شخصيات هذه الثورة ، وهو قائد الحملة المشهورة إلى إيرلندا .

(٨) جان فيكتور مورو Jean-Victor Moreau (١٧٦٣–١٨١٣) قائد فرنسى اشتهر فى أيام الثورة الفرنسية ، وكان منافساً لنابليون بونابرت . نفى بسبب تعاونه

مع الملكيين ، وقتل فى درسدن سنة ١٨١٣ وهو يقاتل جيوش بلاده ؛ وكان قد انخرط فى صفوف القوات الروسية .

(٩) خوسيه دى سان مارتين José de San Martín (١٧٧٨–١٨٥٠) من أعظم أبطال تحرير أمريكا اللاتينية ، بل هو الذى يقاسم بوليفار شرف هذا اللقب الكبير ، ولو أن شخصيته لا تسمو إلى عبقرية بوليفار وجلالة اسمه كما سنرى فى نفس المقارنة المستفيضة التى سيعقدها المؤلف عند تحليله لشخصيتى البطلين وأعمالهما .

وقد ولد سان مارتين من أبوين إسبانيين فى ٢٥ من فبراير سنة ١٧٧٨ فى إحدى قرى الأرجنتين الصغيرة . ثم انتقل به والده إلى إسبانيا وكان لا يزال فى الثامنة من عمره ودرس فى أحد معاهد مدريد المخصصة لأبناء النبلاء ، والتحق منذ شبابه المبكر بالخدمة العسكرية فى الجيش الإسبانى ، وشارك فى بعض الحملات العسكرية الإسبانية ضد فرنسا أثناء احتلال نابوليون بونابرت لإسبانيا بين سنتى ١٨٠٢ و١٨٠٨ ، وابلى بلاء حسناً فى بعض هذه المعارك حتى إنه نال تقديراً كبيراً من جانب رؤسائه ومن جانب الشعب الإسبانى نفسه . وحينما أطلقت صرخة الدعوة إلى استقلال الأرجنتين عن إسبانيا كان سان مارتين قد قضى عشرين سنة من حياته العسكرية فى خدمة الجيش الإسبانى ، ومع ذلك فانه لم يتردد فى الاشتراك فى أعمال الجمعيات السرية الأمريكية التى كانت تطالب بالاستقلال والتى كانت تجتمع فى الخفاء فى مدينة قادس . وفى سنة ١٨١١ تنازل طائعاً عن رتبته فى الجيش الإسبانى واعتزل الخدمة العسكرية وآثر العودة إلى بلاده الأرجنتين لكى يضع نفسه فى خدمة قضية الاستقلال . وفى سنة ١٨١٢ عهدت اليه الحكومة الثورية بتنظيم سلاح الفرسان . وفى سنة ١٨١٣ أحرزت الفرقة التى ألفها أول انتصار كبير لها على القوات الإسبانية فى سان لورنثو على ضفاف نهر البارانا . وفى السنة التالية عهد إليه قيادة جيش التحرير ، وبفضله أعلن استقلال الأرجنتين رسمياً فى ٩ من يولية سنة ١٨١٦ ، على أن الخطة التى وضعها سان مارتين كانت تقتضى تحرير شيلى من السيطرة الإسبانية تأميناً لاستقلال الأرجنتين الوليد ، وهكذا اضطلع بحملة شيلى الرائعة التى اخترق فيها جبال الأنديز والتى كللها بانتصار عظيم على الإسبان فى معركة « تشاكابوكو » (١٢ من فبراير ١٨١٧) ، ومهد له هذا الانتصار طريق دخول العاصمة الشيلية « سانتياجو » . وعلى أثر ذلك انتخبه أهل شيلى قائداً وزعيما لهم ، ولكنه اعتذر عن ذلك ، وعهد بحكم البلاد لقائد شيلى عمل تحت إمرته فى معركة تشاكابوكو هو برناردو أو هيجينز Bernardo O'Higgins وعاد سان مارتين إلى بوينوس ايرس ، وهو يعتزم تحرير بيرو كذلك عن

طريق إنشاء أسطول قوى يستطيع السيطرة فى مياه المحيط الهادى على السواحل الغربية لقارة أمريكا الجنوبية . ولم تكن شيلى قد تخلصت نهائياً من غزو القوات الإسبانية التى كان نائب الملك فى بيرو يوجه بها إلى تلك البلاد ، ولهذا عاد سان مارتين إلى شيلى واستطاع أن يوقع بالجيش الإسبانى هزيمة أخرى فى معركة «مايبو» فى ٨ من ابريل سنة ١٨١٨ ، ورجع سان مارتين إلى بوينوس أيرس حيث ظل سنتين يحاول إقناع الحكومة بتمويل حملة لتحرير بيرو ، وبعد تردد طويل قبل مشروعه وبدأ تنفيذه فى أواخر سنة ١٨٢٠ . وفى يولية سنة ١٨٢١ استطاع سان مارتين أن يجبر الحاكم الإسبانى على مغادرة ليما وأن يعلن استقلال بيرو ، وظل بعد ذلك فى ليما لينظم حكومتها نحو سنة ، عقد بعدها اجتماعه التاريخى ببوليفار بين يومى ٢٦ و٢٧ من يولية سنة ١٨٢٢ ، وفى هذا الاجتماع قرر سان مارتين أن يرحل عن ليما وآثر أن يترك ميدان بيرو لبوليفار لاعتقاده أن ذلك أصلح لقضية الاستقلال الأمريكى . بل إنه منذ هذا التاريخ اعتبر انه أدى الرسالة التى نيطت به وقرر اعتزال الحياة العامة كلها . وفى ديسمبر سنة ١٨٢٣ غادر بلاده طائعاً إلى أوربا : انجلترا ثم اسكتلندا ، وأخيراً استقر سنوات فى بلجيكا ، وفى سنة ١٨٢٨ عاد إلى بلاده ليضع جهوده فى خدمتها من جديد بعد أن بلغه نبأ نشوب الحرب بين الأرجنتين والبرازيل ولكن الحرب انتهت عند وصوله فواصل طريقه إلى بوينوس أيرس ، غير أنه رفض النزول إلى أرض بلاده حينما بلغه نبأ النزاع بين حزبى البلاد الكبيرين وأنهما يتنافسان على ضمه إلى صفوف كل منهما . ولهذا فقد آثر المسير إلى مونتفيديو (اورجواى) حيث أمضى شهوراً عاد بعدها إلى منفاه فى أوربا ، واستقر هذه المرة فى فرنسا حيث قضى آخر سنى حياته فى بولونى حتى جاءه الموت فى ١٧ من اغسطس سنة ١٨٥٠ .

(١٠) خوسيه خرباسيو ارتيجاس José Gervasio Artigas (١٧٦٤—١٨٥٠) بطل استقلال أورجواى . ولد فى مونتفيديو وظل حتى بلغ سن الثلاثين منصرفاً إلى أعمال الزراعة وتربية المواشى فى ضيعة أبيه ، ولكنه فى هذه السن بدأ اهتمامه بقضية بلاده ، وكرس لها جهوده ، حتى إن حياته أصبحت سلسلة متواصلة من الكفاح ضد الاستعمار الإسبانى من ناحية ، وضد محاولات الحركة الاستقلالية الأرجنتينية ضم أورجواى إليها . وأخيرا استطاع أن يحصل على استقلال بلاده فى سنة ١٨١٤ ، غير أن الحرب الأهلية التى شبت فى البلاد بعد ذلك انتهت بهزيمة أرتيجاس ونفيه عن بلاده ، فاستقر فى باراجواى منذ سنة ١٨٢٠ . وفى سنة ١٨٤١ دعى للعودة إلى أورجواى ، ولكنه آثر مواصلة اعتزاله للحياة السياسية ، فبقى فى منفاه بأسونثيون (عاصمة باراجواى) حتى وفاته فى ٢٣ من سبتمبر

سنة ١٨٥٠ ، وفى سنة ١٨٥٤ نودى بارتيجاس « مؤسساً للقومية الأورجوانية » . وهو يعتبر فى الحقيقة أول من نادى بالاستقلال الكامل فى أمريكا اللاتينية ، كما أنه أول من دعا إلى نظام الحكم الجمهورى الاتحادى (الفيدرالى) فى هذه القارة .

(١١) خوسيه توماس بوفيس José Tomas Boves (١٧٨٢–١٨١٤) محارب إسبانى الأصل ، قدم إلى فنزويلا فى نحو سنة ١٨٠٣ ، واستقر فى سهول فنزويلا حيث اشتغل بتجارة الماشية ، وحينما نشبت حرب الاستقلال انضم إلى صفوف الملكيين الذين كانوا يقاتلون فى سبيل إبقاء سلطة الاستعمار الإسبانى . واستطاع على رأس ستة آلاف من السهليين جندهم تحت لواء الملكية الإسبانية أن يلحق بالوطنيين المدافعين عن قضية الاستقلال هزائم كثيرة منكرة ، وكان معروفاً بشدة البأس والقسوة والصرامة المتناهية . وأخيراً قتل فى إحدى المعارك فى سنة ١٨١٤ .

(١٢) «الكبيادس» (٤٥٠–٤٠٤ ق.م.) سياسى وقائد إغريقى قديم كان هو الذى جر أهل أثينا إلى الحرب ضد صقلية ، وهى الحرب التى كانت كارثة على الأثينيين إذ انتهت إلى فشل ذريع . أما الكبيادس فقد تآمر عليه أعداؤه وأحرقوه فى داره . وكان الكبيادس من أشهر ساسة الإغريق القدماء وأعظم خطبائهم .

(١٣) خوان مارتين جويمس Juan Martin Güemes (١٧٨٥–١٨٢١) قائد عسكرى أرجنتينى كان له دور كبير فى حرب الاستقلال ، وهو الذى كان يضطلع بقيادة فرسان السهول المعروفين باسم « الجاوتشوس » ، دخل المدرسة العسكرية وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، واشترك فى القتال ضد الحملات الإنجليزية التى هاجمت الأرجنتين ، ثم انخرط فى الجيش الثورى الذى قاتل ضد الإسبان ، وهو الذى قام بتنظيم جيش المقاومة فى منطقة سالتا Salta ، معاوناً جيش مانويل بلجرانو المعسكر فى توكومان ، كما شن حرب العصابات ضد جيش الجنرال الإسبانى الملكى لاسيرنا La Serna ، وقدم بذلك أكبر معونة للحركة الاستقلالية . وأصبح يعتبر بطل منطقة سالتا التى عهد إليه بحكمها بعد تحرير الأرجنتين ، وكان ذا أفكار إصلاحية اجتماعية حتى إنه أطلق عليه لقب «أبى الفقراء»

(١٤) مانويل بلجرانو Manuel Belgrano (١٧٧٠ – ١٨٢٠) من أبطال تحرير الأرجنتين ، وهو الذى قاد المعارك التى دارت فى سالتا وتوكومان . ولد فى بوينوس أيرس حيث بدأ دراسته ثم انتقل إلى إسبانيا فأكمل تعليمه بجامعة سلمنكة ، وتخرج فيها محامياً ، فاشتغل بالقضاء والاقتصاد ، ثم اشترك منذ سنة ١٨١٠ فى

حرب التحرير ، وتوالت انتصاراته وإن كان القائد الإسبانى بيثويلا Pezuela قد ألحق به كذلك هزائم فادحة مما جعل سان مارتين يتولى القيادة بنفسه ومع ذلك فان اضطلاع سان مارتين بالقيادة لم يثر فى نفسه أى تذمر، بل قبل وضعه الجديد فى تواضع وانقياد ، وقد كان بلجرانو هو الذى حث سان مارتين على إعلان الاستقلال الكامل فى وثيقتى ٥ من يولية و٢٩ من يولية من السنة المذكورة. وبعد الاستقلال عهد إلى بلجرانو بقيادة الجيش الجمهورى الجديد شمال الأرجنتين ، وظل فى هذا المنصب حتى وفاته فى ٢٠ من يولية سنة ١٨٢٠ .

(١٥) خوسيه روندو José Rondeau (١٧٧٣–١٨٤٤) قائد عسكرى ووطنى من قواد الحركة الاستقلالية فى أورجواى . بدأ حياته فى مونتفيديو محارباً ضد الإنجليز الذين احتلوا هذه المدينة فى سنة ١٨٠٧ ، ولكنه أسر وحمل إلى انجلترا ، ثم أطلق سراحه وعاد إلى بلاده ، وحينما قامت الثورة من أجل الاستقلال عن إسبانيا التحق بالحركة الوطنية ، وعين قائداً للمنطقة الشرقية ، وحاصر مونتفيديو مرتين ، وأحرز على القوات الإسبانية انتصاراً كبيراً فى معركة « الثريتو El Cerrito » التى رقى بعدها إلى رتبة « جنرال » . وفى سنة ١٨١٤ عين قائداً لمنطقة بيرو العليا ، وتنقل فى مناصب عسكرية مختلفة من بينها وزير الدفاع والبحرية ، ثم انتخب حاكماً وقائداً عسكرياً لجمهورية أورجواى الشرقية ما بين سنتى ١٨٢٨ و١٨٣٠ ، وظل يتولى عديداً من المناصب حتى وفاته فى مونتفيديو سنة ١٨٤٤ .

(١٦) ماريانو مورينو Mariano Moreno (١٧٧٨–١٨١١) يعتبر بحق روح الثورة الأرجنتينية، وإن كان قد توفى وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، وكان ابن فلاح اسبانى متواضع استقر فى بوينوس أيرس، واشتغل بالمحاماة بعد إنهاء دراسته ، وكان من دعاة تحرير الهنود وإصلاح أوضاعهم، وحينما اشتعلت الثورة الاستقلالية فى مايو سنة ١٨١٠ عين أميناً عاماً لأول هيئة تحكم البلاد فى ظل راية الاستقلال ، وحينئذ بدت مواهبه كحاكم ومشرع ومحرك لجيوش الاستقلال ، ومن أهم أعماله ترجمته الإسبانية وتقديمه لكتاب « العقد الاجتماعى » لجان جاك روسو ، وإنشاؤه للمكتبة الوطنية فى بوينوس أيرس ، فضلا على دفاعه عن حريات بلاده المكتسبة بفضل الاستقلال ، وصموده لكل الانحرافات التى لحقت الثورة التحريرية بعد ذلك ، وقد عهد إلى ماريانو مورينو بمهمة دبلوماسية فى لندن ، ولكنه توفى وهو على الباخرة فى الطريق إلى انجلترا بعد حياة حافلة وضعها فى خدمة ثورة بلاده واستقلالها .

(١٧) كارل الثانى عشر Karl XII (١٦٨٢–١٧١٨) ملك السويد، ولى العرش وهو فى الخامسة عشرة من عمره، وما لبث أن تحالفت ضده روسيا وبولونيا والدانيمارك استهتاراً بشأنه واستضعافاً له إذ غر هذه الدول منه صغر سنه، ولكنه كان ذا مواهب عسكرية فائقة تجلت بمجرد صعوده على عرش المملكة، كما أنه كان ذا مقدرة استثنائية على الصمود، فسارع إلى جمع قواته وهزم جيوش الدول المتحالفة الثلاث كلها جيشاً بعد جيش، بل إنه تمكن من دخول وارسو وكوبنهاجن، وعرض قيصر روسيا الصلح عليه، ولكنه رفض وصمم على غزو روسيا نفسها، غير أن حملته انتهت بتحطيم جيشه فى بولتافا (سنة ١٧٠٩)، واضطر كارل الثانى عشر إلى الهرب واللجوء إلى تركيا ثم هرب بعد ثلاث سنوات، وعاد إلى بلاده لكى يحررها من حملات الطامعين فيها فى غيابه، فلما تم له ذلك بدأ يستعد من جديد للاستيلاء على النرويج وغزو انجلترا، لكنه قتل أثناء حصار فريدر يكشال.

(١٨) جوستاف فلوبير Gustave Flaubert (١٨٢١ – ١٨٨٠) كاتب روائى يعتبر من أساتذة المدرسة الواقعية. ومن أهم رواياته المشهورة «مدام بوفارى» و «رسائله»، ويعتبر من أساتذة فلسفة الجمال ومن أكبر الروائيين الفرنسيين المنتمين إلى المدرسة الواقعية الطبيعية مثل جى دى موباسان وإميل زولا.

(١٩) إمانويل كانت Emmanuel Kant (١٧٢٤ – ١٨٠٤) هو الفيلسوف الألمانى المشهور.

(٢٠) خوان مانويل دى روساس Juan Manuel de Rosas (١٧٩٣ – ١٨٧٧) قائد عسكرى وسياسى أرجنتينى بدأ حياته بالعمل فى التجارة واستغلال الضياع التى آلت إلى ملكه حتى حصل من ذلك على ثروة طائلة أما مساهمته فى الحياة العامة فلم تبدأ إلا فى سنة ١٨٢٠ حينما تولى تنظيم فرق عسكرية عملت على إقرار الأمن فى بوينوس أيرس خلال الفوضى التى ضربت أطنابها فى البلاد فى مستهل عهدها بالاستقلال، كذلك تولى قيادة الجيش الذى أوقع بالهنود الحمر، واستأصل كثيراً من جماعاتهم فى قسوة شديدة. وفى سنة ١٨٢٨ اشترك فى الصراع السياسى الدائر فى الأرجنتين حينئذ. وفى السنة التالية انتخبه المجلس النيابى حاكماً لمقاطعة بوينوس أيرس اعترافاً بما أبداه من الحزم والصرامة. وفى سنة ١٨٣٣ قاد حملة أخرى ضد الهنود منتزعاً منهم أراضى جديدة. وفى السنة التالية انتخب مرة أخرى حاكماً لمقاطعة بوينوس أيرس ولم يقبل هذا المنصب

إلا بعد أن اشترط منحه سلطات استثنائية. ومنذ ذلك الوقت حكم البلاد حكماً إرهابياً شديد الوطأة ؛ فتعقب خصومه السياسيين ونكل بهم أبشع تنكيل. واستمر حكم روساس الدكتاتورى حتى سنة ١٨٥٢ حينما أطاحت به ثورة عسكرية وشعبية عارمة. واضطر روساس إلى الهرب من البلاد على ظهر سفينة انجليزية إلى انجلترا ، وعاش منذ ذلك الوقت فى منفاه قرب سوثامبتون نحو خمس وعشرين سنة حتى وفاته سنة ١٨٧٧ .

(٢١) جوزيبى مازينى Giuseppi Mazzini (١٨٠٥ — ١٨٧٢) بطل من أبطال تحرير إيطاليا وتوحيدها. بدأ حياته السياسية بالانضمام إلى الجمعية السرية المعروفة باسم « الكاربونارى » التى كانت تكافح فى سبيل وحدة إيطاليا . وقبض عليه وسجن فى سنة ١٨٣٠ ، ثم نفى عن إيطاليا فتوجه إلى مرسيليا حيث أسس جريدة « إيطاليا الفتاة » ، ثم انتقل إلى سويسرا ، ومنها حاول أن يقوم بغزو إيطاليا ، ولكن حملته فشلت ، فتوجه إلى انجلترا بعد طرده من إيطاليا . وفى سنة ١٨٤٨ عاد إلى بلاده بعد أن اشتعلت فيها ثورة فبراير المشهورة . ولما أعلنت الجمهورية فى إيطاليا كان من بين الثلاثة الذين تولوا رياسة الحكم الجمهورى ، ولكن هذه الحكومة فشلت ولو أن الوحدة الإيطالية التى كافح طويلا فى سبيلها قد تحققت أخيراً لا تحت لواء الجمهورية وإنما فى ظل النظام الملكى . غير أن مازينى عاود العمل من أجل إسقاط الملكية مما أدى إلى القبض عليه إثر محاولة انقلاب فاشلة فى سنة ١٨٧٠ ، وتوفى بعد ذلك بسنتين . ومازينى ما زال يعتبر من أعظم قادة إيطاليا الوطنيين المخلصين .

(٢٢) ما سيمو تاباريللى دازيليو Massimo Taparelli D'Azeglio (١٧٩٨— ١٨٦٦) كاتب سياسى إيطالى كان من أعظم الدعاة إلى الأفكار التحررية . اشترك فى ثورة سنة ١٨٤٨ وفى الحرب ضد النمسا . وبعد الحرب تولى التمثيل النيابى لجزيرة سردانية ، وعهد إليه برياسة الوزارة الملك فيكتور إمانويل الثانى ، فوطد النظام الديمقراطى ، ثم ترك الحكم فى سنة ١٨٥٢ لوزير ماليته السياسى العظيم كافور ، وكان أديباً نشرت له مجموعات من المقالات والروايات .

(٢٣) روفينو بلانكو فومبونا Rufino Blanco Fombona (١٨٧٤—١٩٤٤) كاتب مؤرخ شاعر من فنزويلا متعدد جوانب الثقافة شارك فى سياسة بلاده ، فكان من خصوم النظام الدكتاتورى الذى فرضه على فنزويلا خوان فيثنتى جومث . واضطرته عداوته لهذا النظام إلى مغادرة بلاده ، فعاش سنوات طويلة فى فرنسا وإسبانيا حيث

أنشأ دار نشر كبيرة أطلق عليها إسم «أمريكا» ، وكان لها نشاط كبير ولا سيما فى توثيق العلاقات الثقافية بين إسبانيا وقارة أمريكا اللاتينية . وقد علت منزلته فى إسبانيا حتى إنه عهد إليه بحكم بعض مقاطعاتها فى ظل الجمهورية الثانية المعلنة فى إسبانيا سنة ١٩٣٠ . ثم عاد فى أواخر عمره إلى بلاده حيث عهد إليه بحكم ولاية ميراندا فى ظل الرئيس الجنرال لوبث كونتريراس . وبلانكو فومبونا غزير الإنتاج ، له أكثر من أربعين كتاباً من أهمها «الفاتح الإسبانى فى القرن السادس عشر» و «التطور السياسى والإجتماعى لأمريكا الإسبانية» و «رجل من ذهب» و «رجل من حديد» و «المدرسة الجديثة والشعراء المحدثون» و «قصص أمريكية» و «ديوان غنائى صغير» وغير ذلك مما يسمح باعطاء فكرة عن مدى تنوع ثقافته وتشعبها .

(٢٤) يشير الكاتب هنا إلى ذلك اللقاء التاريخى الذى تم بين سيمون بوليفار وسان مارتين محرر الأرجنتين خلال يومى ٢٦ و٢٧ من يولية سنة ١٨٢٢ ، وذلك بعد المسيرة الطويلة التى بدأها بوليفار من كاراكاس بعد تحريرها من الجيوش الإسبانية فى مارس سنة ١٨٢٢ متوجهاً إلى الغرب ثم مخترقا جبال الأنديز الشامخة ونازلا إلى الجنوب لتحرير إكوادور . وكان يرافق بوليفار فى هذه المسيرة الأسطورية أحد أعاظم قواده المخلصين : «سوكرى» . والتحم بوليفار خلالها بالجيوش الإسبانية فى معارك كثيرة كان النصر حليفه فيها ، واستطاع أن يضم كيتو عاصمة إكوادور إلى دولة «كولومبيا الكبرى» التى كان له فضل إنشائها . ثم واصل السير إلى جواياكيل Guayaquil التى كانت بيرو تطالب بضمها إليها ، ولكنه مضى فى طريقه محاولا ضمها إلى الجمهورية الجديدة . وفى هذا الوقت وصل إلى هذه المدينة سان مارتين بطل تحرير الأرجنتين ، ويستقبله بوليفار بحفاوة عظيمة ، ويتم لقاء البطلين بين ٢٦ و٢٧ من يولية سنة ١٨٢٢ ، ولا يعرف أحد ما الذى دار فى هذا اللقاء التاريخى ، إذ أنه تم بينهما منفردين ، غير أن الذى تعرفه بعد ذلك هو أن سان مارتين قرر بعده ترك الميدان لبوليفار والانسحاب من بيرو ، وهكذا ضمت جواياكيل رسمياً إلى جمهورية كولومبيا الكبرى . ويبدأ بوليفار منذ ذلك اللقاء حملته الكبيرة لتحرير بيرو .

(٢٥) بلتاسار جراثيان Baltasar Gracian (١٦٠١ — ١٦٥٨) كاتب وفيلسوف إسبانى مشهور ، كان من رجال الدين من طائفة اليسوعيين (الجيزويت) . وأعظم كتبه وأشهرها «البطل» (El Héroe) الذى يعتبر من أعظم الدراسات الفلسفية والأخلاقية ، وفيه يتحدث عن نماذج البطولة وانواعها ويحلل نفسيات الأبطال

تحليلا رائعا . وقد كتبه رداً على كتاب مكيا فيللى المعروف « الأمير » . ولجراثيان كذلك رواية فلسفية بعنوان « الناقد » (El Criticón) وقد أثبت النقد الحديث أنها متأثرة تأثراً كبيراً برواية الفيلسوف الأندلسى المشهور ابن طفيل صاحب رسالة « حى بن يقظان

(٢٦) الأب جيوم رابنال Guillaume Raynal (١٧١٣–١٧٩٦) فيلسوف ومؤرخ فرنسى ، من أشهر إنتاجه كتابه عن « تاريخ المستعمرات والمنشآت الأوربية فى جزر الهند الشرقية والغربية » .

(٢٧) جان فرانسوا مارمونتيل Jean François Marmontel (١٧٢٣ – ١٧٩٩) أديب فرنسى اهتم بتاريخ أمريكا اللاتينية والحضارات الهندية القديمة فيها ومن أهم مؤلفاته كتابه عن شعب « الإنكاس » (الشعب الهندى الذى كان يعيش فى بيرو قبل الفتح الإسبانى) ، ومذكراته التى كتبها لتأديب أبنائه ، وقد نشرت هذه المذكرات فى سنة ١٧٩٨ .

(٢٨) جابرييل بونو دى مابلى Gabriel Bonnot de Mably (١٧٢٣–١٧٩٩) فيلسوف ومؤرخ فرنسى من أهم مؤلفاته كتاب عن « القانون العام فى أوربا » و « ملاحظات حول تاريخ فرنسا » .

(٢٩) الجيرنديون والجبليون اسما طائفتين برلمانيتين من الطوائف الثورية التى كانت ممثلة فى الجمعية التشريعية فى سنتى ١٧٩١ و١٧٩٢ بعد اندلاع الثورة الفرنسية فى سنة ١٧٨٩ ، وكان الجيرونديون يمثلون الفكرة الجمهورية اليمينية المتطرفة ، بينما كان الجبليون يمثلون اليسار المتطرف تحت زعامة الإرهابى المعروف روبسبير .

(٣٠) أجوستين إيتوربيدى Agustín Iturbide (١٧٨٣–١٨٢٤) دكتاتور المكسيك الذى أعلن نفسه امبراطوراً على هذه البلاد بعد استقلالها عن إسبانيا ، بدأ حياته عسكرياً واشتهر بالقسوة المفرطة ، واستطاع بالخداع والتآمر ان يوهم الشعب بأنه يعمل على تحرير البلاد من السيطرة الاستعمارية الإسبانية ، فلما تحقق الاستقلال إذا به يعلن النظام الملكى ويفرض نفسه ملكاً ثم إمبراطوراً فى ٢١ من يولية سنة ١٨٢٢ . واعقب ذلك أن حل البرلمان وفرض حكماً إرهابياً مطلقاً ، فاندلعت ضده الثورات الشعبية فى جميع أنحاء البلاد ، وهكذا اضطر إيتور بيدى إلى إعادة البرلمان والتخلى عن العرش ، وأعقب ذلك نفيه عن البلاد ، ولكنه فى فبراير سنة ١٨٢٤ وكان فى لندن أيامها أعلن عزمه على العودة

إلى المكسيك ليستعيد السلطة . وفى ١٥ من يولية عاد بالفعل . نقبض عليه فى اليوم التالى لوصوله ، ونفذ عليه حكم الإعدام الصادر فيه فى ١٩ من يولية سنة ١٨٢٤ .

(٣١) يشير الكاتب هنا إلى حديث اسطورى ورد فى التوراة عن ابنى النبى إسحق من زوجته « ريبيكا » : وهما يعقوب (إسرائيل) وعيسو ، وكانا توأمين ، وقد دب بينهما نزاع شديد حول من كان منهما أحق بأن يعتبر اكبر إخوته ، إذ كان الأخ الأكبر هو الذي يعتبر وارث أبيه وولى عهده . ويذكر الحديث الأسطورى أن الشجار كان قد بدأ بينهما وأمهما بعد حامل بهما .

(٣٢) خوسيه ماريا أوباندو José María Obando (١٧٩٥–١٨٦١) بدأ حياته ضابطاً عسكرياً فى خدمة الجيش الإسبانى الملكى ، فلما أعلن بوليفار الثورة انضم إلى قواته الجمهورية وأصبح من أعوان بوليفار وقواده ، وأبدى بسالة مذكورة فى بعض المعارك التى قادها بطل التحرير ، ولكنه ثار على زعيمه فى سنة ١٨٢٨ فى منطقتى لاديرا Ladera وبوبايان Popayán ، وهزم الجيوش التى وجهت لقتاله فى أول الأمر ، ولكن تمرده انتهى إلى الفشل . ولما اشتعلت الحرب بين كولومبيا وبيرو رقى إلى نائب رئيس هيئة أركان حرب الجيش الكولومبيانى ، ثم عين قائداً للجيش فى الحرب التى دارت ضد إكوادور . وفى سنة ١٨٣١ عين نائباً لرئيس جمهورية البلاد . وفى سنة ١٨٣٩ أعلن الثورة على الرئيس ماركيث ، ولكنه هزم ونفى عن البلاد حتى سنة ١٨٤٨ ، وتقلب فى عديد من المناصب العسكرية والمدنية حتى انتخب رئيساً للجمهورية فى سنة ١٨٥٣ ، ولكن ثورة مسلحة أطاحت بحكمه وقضت بنفيه عن البلاد من جديد ، وفى سنة ١٨٦٠ عاد إلى البلاد . ولكنه قتل فى إحدى المعارك .

(٣٣) انتونيو خوسيه دى سوكرى Antonio José de Sucre (١٧٩٥ – ١٨٣٠) قائد عسكرى وطنى فنزويلى، ولد فى كومانا ، وانضم إلى جيوش أول ثورة وطنية على الاستعمار الإسبانى ، وهى الثورة التى أعلنها فرانسسكو ميراندا فى سنة ١٨١٠ ، وفى سنة ١٨١٢ عمل تحت قيادة ميراندا ، ثم تحت قيادة انتونيو نارينيو Antonio Narino وفى سنة ١٨١٣ انضم إلى بوليفار حينما اقتحم كاراكاس . ومنذ ذلك التاريخ أصبح من أكثر اتباعه إخلاصاً له وإيماناً بقضية الثورة التحريرية الكبرى وعهد إليه بوليفار بقيادة جيش كولومبيا الذى توجه إلى بيرو وإكوادور ، وهناك أحرز على القوات الإسبانية انتصارات عظيمة مثل انتصار بتشنشا Pichincha الذى ترتب عليه تحرير إكوادور

من الحكم الإسبانى كذلك اشترك فى معركة « خونين Junín » . ثم عهد إليه بوليفار بقيادة الجيش الذى قدر له انتصار كبير فى معركة أياكوتشو (٩ من ديسمبر سنة ١٨٢٤) ، وكان هذا الانتصار فاصلا حاسما فى استقلال بيرو وبوليفيا ، ومن أجله أطلق على سوكرى لقب « ماريشال أياكوتشو العظيم . وعلى أثر ذلك تألفت من منطقة بيرو العليا دولة جديدة هى التى عرفت بعد ذلك باسم «بوليفيا » (نسبة إلى بوليفار) ، وانتخب سوكرى رئيساً لهذه الدولة ، ولكن الأمر لم يستقر له إذ بدأت المؤامرات والثورات العسكرية المسلحة تحاك ضده بل إنه تعرض للاغتيال مرة وهو يحاول تهدئة المتمردين . وفى ٤ من مايو سنة ١٨٢٨ انسحب من بوليفيا متوجها إلى بلده فنزويلا معلناً تخليه عن السلطة نهائياً فى وثيقة تصور مدى زهده ووطنيته . ولكنه وهو فى طريقه إلى كيتو (إكوادور) وفى نفس المكان الذى دعى منه لكى يتولى رياسة جمهورية بوليفيا على جبل بيرويكرس من جبال الأنديز ترصدت له جماعة من المتمردين واغتالته فى ٤ من يونية سنة ١٨٣٠ ويعتبر سوكرى من أعظم رجال الثورة الأمريكية وأكثرهم إخلاصاً وتضحية فى سبيل قضية التحرير .

(٣٤) توماس نيريانو موسكيرا Tomás Cipriano Mosquera (١٧٩٨ — ١٨٧٨) عسكرى وسياسى من كولومبيا كان من أعوان بوليفار ، واشترك فى الصراع السياسى الذى دار فى البلاد والذى أدى إلى تمزق الدولة الموحدة التى أسسها بوليفار باسم « جمهورية كولومبيا الكبرى (والتى كانت تضم فنزويلا وكولومبيا الحالية وبيرو وإكوادور وبوليفيا) . وفى سنة ١٨٤٥ ولى رياسة الجمهورية ، ثم أبعد عن الحكم وفى سنة ١٨٥٩ أعلن الثورة على حكومة ماريانو أوسبينا وولى رياسة الجمهورية من جديد حتى سنة ١٨٦٤ . وأعيد انتخابه فى سنة ١٨٦٦ ، غير أنه أراد أن يفرض حكماً دكتاتورياً على البلاد ، فوقع انقلاب عسكرى أطاح به فى ٢٣ من مايو سنة ١٨٦٧ . وغادر البلاد على أثر ذلك ، فشغل بعض المناصب الدبلوماسية فى فرنسا وانجلترا . وفى سنة ١٨٧٢ رجع إلى كولومبيا حيث اشترك فى أحداثها السياسية حتى وفاته سنة ١٨٧٨ .

المؤلف فى سطور :

خوسيه إنريكى رودو

مؤلف هذا الكتاب هو الأديب والمفكر خوسيه إنريكى رودو (١٨٧١-١٩١٧) الذى ولد فى مونتڤيديو عاصمة جمهورية أورجواى، وتوفى فى بلرمو (جزيرة صقلية)، وهو يعد من أعلام الأدب والسياسة فى بلده، وتعد كتابته من أجمل نماذج النثر الإسبانى. وكتابه عن بوليڤار ليس ترجمة لحياته، وإنما هو تحليل عميق لملامح العبقرية فى فكره وسلوكه.

المترجم فى سطور :

أ.د محمود على مكى

هو الدكتور محمود على مكى أستاذ الأدب العربى الأندلسى والإسبانى فى جامعة القاهرة، وعضو مجمع اللغة العربية . له دراسات كثيرة حول الأدب والتاريخ الأندلسى، وأبحاث وترجمات للعديد من الآثار الأدبية من إسبانيا ومختلف بلاد أمريكا اللاتينية. وقد ألحق بترجمته لكتاب «بوليڤار» مقدمتين حول سيرة البطل الفنزويلى والأديب الأورجوائى صاحب الكتاب .

المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

الإشـراف اللغـوى : عبد الرحمن حجازى

الإشـراف الفنـى : حـسن كـامل

تصميـم الغـلاف : عبد العزيز السماحى